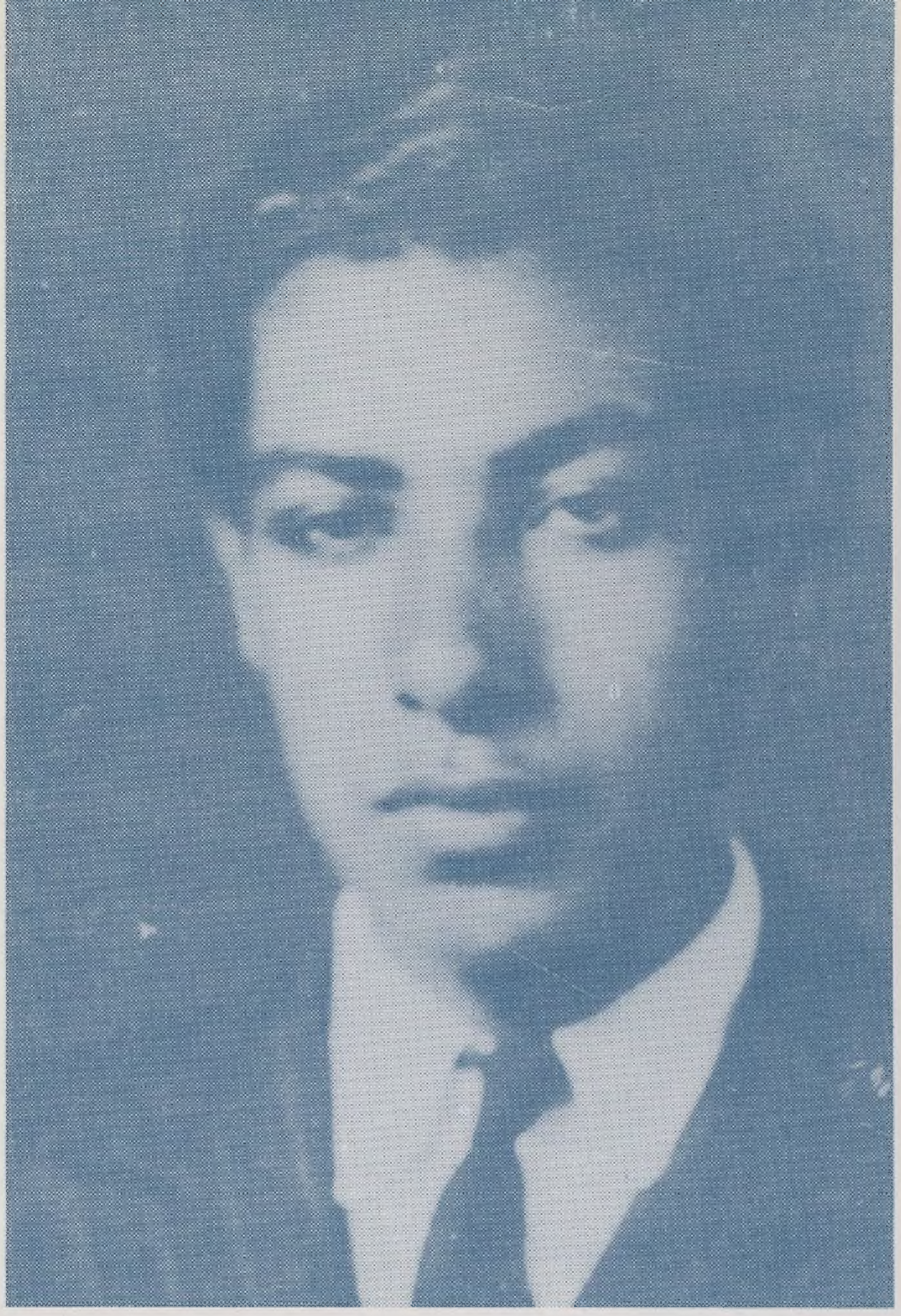

منير رمزي

هذا الكتاب
ملك الأستاذ الدكتور
رمزي زكي بطرس

بريق الرّماد

تقديم:

إدوار الخرّاط

محمد مصطفى بدوي

سلسلة كتاب شرقيات للجميع (٣٩)

ربيع الرّماد

بريق الرماد

منير رمزي

تقديم: إدوار الخرّاط

ومحمد مصطفى بدوي

الطبعة الأولى ١٩٩٧

© حقوق النشر محفوظة لدار شرقيات ١٩٩٧

دار شرقيات للنشر والتوزيع

٥ ش محمد صدقي، هدى شعراوي

رقم بريدي ١١١١١

باب اللوق، القاهرة

ت: ٣٩٠٢٩١٣ س. ت: ٢٦٩١٩٨

غلاف واخراج: ذات حسين

رقم الإيداع ١١١٤٥ /٩٦

الترقيم الدولي ISBN 977-283 - 031 - 0

بريق الرّماد

منير رمزي

شرقيات

منير رمزي شاعراً

بقلم أ. د. محمد مصطفى بدوي

ما من شك في أن محمد منير رمزي على قصر عمره (١٩٢٥ - ١٩٤٥) كان رائداً من روّاد الشعر العربي الحديث وأغلب الظن أنه كان يشغل الآن مركزاً مرموقاً في تاريخ تطور الشعر العربي الحديث لو أنه نشر شيئاً من شعره أثناء حياته. لم يكن قراره أن ينهي حياته إثر تجربة عاطفية فاشلة مجرّد مأساة فردية إذ كانت وفاته خسارة فادحة لقضية الشعر الحديث في مصر ولو قدّر له أن يعيش لصار من كبار شعراء جيله بلا منازع.

بدأ منير رمزي بدايةً رومانطيقيةً كما صنع الكثيرون من شعراء جيله. غير أن رومانطيقيته اتّسمت منذ البداية بحساسية فذة وجيشان في العاطفة وعمق ورهافة في الشعر بالإضافة إلى بساطة الأسلوب وشفافيته وضبابيته وإيحاءاته الغامضة وإلى قدرة نادرة على توليد الصور والأخيلة الغريبة. وسرعان ما تطور شعره خلال سنة أو سنتين وتحولت رومانطيقيته إلى حدّ ما تحت تأثير دراسته للأدب الانجليزى في جامعة الأسكندرية إلى ضرب من السيريالية والحداثة. كما أنه لجأ منذ البداية إلى ما كان يسمى حينذاك بالشعر المنثور وإن كان شعره أقرب إلى ما يطلق عليه الآن اسم قصيدة النثر، فهو لاشك من روادها، إذ يتميز بموسيقى غريبة تصل إلى أعماق اللاشعور.

منير رمزي الشاعر الرومانطيقي يمضّه الإحساس بالغربة فيقول في قصيدته «أنا الغريب» : «أنا الغريب / أذرع الأيام على نغمات موسيقى/ / حزينة ضائعة/ غير تارك فيها آثاراً لقدمي / أنا الغريب، فقدت طريقي قبل أن أجدها». وفي قصيدة «البقايا» ليس الشاعر وحده هو الذي يضلّ طريقه بل الإنسانية جمعاء في صراعها مع الزمن. «قصيرة ذاهبة/ تلك اللحظات التي نختطفها/ من بين برائن الزمن/ نريد الهروب بها / لكننا نفقد الطريق بين أطلال/ تحوم فيها أشباح آلامنا». والشاعر الرومانطيقي يتعاطف مع مظاهر الموت والفناء والألم في الطبيعة. ويكفي أن نقارن قصيدة ميخائيل نعيمة «أوراق الخريف» التي مطلعها «تناثري تناثري يابهجة النظر» بقصيدة منير رمزي «الأوراق الذابلة» لندرك مقدار ما اكتسبه شعر الطبيعة في الرومانطيقية العربية من عمق وحساسية واستبطان على يد منير رمزي: «في قلب الليل/ حين يفيض بالصمت كل شيء/ أظل أحدق في السواد الكئيب/ باحثاً في الظلمة عن ظلالك المتعبة/ أيتها الأوراق الذابلة / أظل أحدق في ظلالك المتعبة/ تطاردها في قسوة أشعة القمر/ منصتاً إلى وقع خطواتك التي تطرّق إليها الإعياء/ مصغياً إلى كلماتك/ التي تتسلّل في ضعف / إلى خفايا عميقة من نفسي.»

هذا الموقف إزاء الطبيعة الذي يضفي فيه الشاعر عليها من المشاعر والأحاسيس البشرية ما يجعلها تستجيب له فتتعاطف معه أو تعكس انفعالاته نجده على الأغلب في بعض قصائد الحب الأولى، فمثلاً في« «صلوات قلب» يحمّل الشاعر الطبيعة عواطفه ورسالة حبه فيخاطب محبوبته قائلاً: «إذا رأيت في الصباح الباكر الحشائش الخضراء/ تلمع فوقها قطرات الندى الباسمة/ فلا تطئيها بقدميك/ فقد حمّلتها أدمعي». نواح الطائر ليس إلاّ صدىً لألحان قلب الشاعر، والزهرة الذابلة ما ذبلت لأنها اكتهلت بل ذبلت لأن الشاعر بثّها آلامه والطبيعة ذاتها «ترنو» إلى حبيبته «بعين العاشق». ومن ثم فإن الشاعر يشغل

عن الطبيعة بشخص محبوبته: «تركت تأمل الطبيعة لاتأملك/ لقد وجدت الطبيعة فيك/ فالوردة الحمراء رأيتها في شفتيك./ والياسمين الأبيض وجدته في وجنتيك/ وأوراق الخريف الكستنائية لمحتها في عينيك/ وشقشقة طيور الفجر سمعتها في صوتك/ بل روح الطبيعة وجدتها في روحك/ تلك الطبيعة التي سيّرت أناملك/ فمسّت بها أوتار قلبي الكسير/فعزفت لحناً جرفني معك إلى معبدك/ حيث لا زلت أحترق.»

بيد أن هذا الموقف إزاء الطبيعة الذي يمزج الطبيعة بالإنسان بل ويوّحد بينهما أحياناً والذي هو في صورته هذه موقف رومانطيقي صرف يختفي بالتدريج تحت وطأة معاناة الشاعر وتجربته الأليمة ليحل محلّه ما يتخطى الرومانطيقية من شعور بحياد الطبيعة فيقول في «دموع»: «في الصباح الصامت/ أتأمل الحشائش الخضراء/ قد لمعت عليها حبات الندى.. فيتساءل قلبي: أهذه دموع نثرتها الطبيعة/ باكية لبكائي؟/ لا لا../ ما كانت الطبيعة لتحفل بآلام يعانيها بشر/ ولو أن روحي قد نسجتها ألحان نسائمها / وحفيف أشجارها، وشدو طيورها/ وصقلها شعاع من أشعة قمرها الحنون/ رغم كل ذلك ما كانت الطبيعة لتحفل بي..» . وفي قصيدة «هناك حيث الفراغ الممتّد بلا نهاية» يتحول الشعور بحياد الطبيعة من مجرّد احساس ذاتيّ فردي فيصبح قضية عامة على نحو ما نجد عند الشاعر الانجليزي (توماس هاردي) فيصير موقف الانسان موقفا بطوليا مأساويا فيقول منير رمزي: «وفوق تلك الصخور/ يلوح الموكب المتحرك منذ الأزل/ المتقدم بلا غاية.. «الصخور الشاخصة في صمت/ تقذف إلى الأمواج برنات السلاسل/ المثبتة في أقدامهم../ وبأعين عميقة كالبحر، حزينة كالليل، يتقدمون إلى الأمام/ ناظرين في استسلام أبديّ إلى ظلالهم الطويلة/ التي تعكسها على أطراف الموج/ نجوم بازغة من وراء ظهورهم، ماضين إلى الأمام / تاركين فتات أقدامهم العارية على الصخور النهمة../

لايسمع الموج منهم سوى ماتردده الصخور/ آهات كالعواء وأنات كالطنين../ والصخور رابضة حيث هي / . نازعة، في جبروت، نحو الأفق». وأبرز ما يتصف به هذا العالم الحديث هو الصمت: «وبعيون صيغت نظراتها من العذاب المبهم/ يسائلون تلك الصخرات/ كمن يعرفون أنها شهدت بدء الموكب/ وستشهد نهايته/ والصخرات صامتة، كما هي../ ساكنة حيث هي../ صمت ينطق بالسخرية/ وسكون يضّج بالضحكات.»

وربما كان لتجربة الحب التي مرّبها الشاعر أثر في هذا التغيير في موقفه وفي نظرته إلى الأشياء فقليل من الشعراء حتى بين شعراء الحب العذري من بلغوا مبلغ منير رمزى في روحانية شعر حبه وفي تفانيه في هوى محبوبته، ذلك التفاني الذى يهيمن على معظم القصائد في هذه المجموعة. فيقول مثلاً في «أصداء»: «أحببتك فأحببت كل شيء/ وافتقدتك فافتقدت كل شيء» وفي «صلوات قلب» وهي قصيدة تجمع بين حرارة العاطفة المشبوبة والمثالية التي ترفع شخص المعشوقة إلى مستوى فوق مستوى البشر، (وتبدأ من موقف عادي جدا يصف الشاعر ومحبوبته وهما يسيران جنبا إلى جنب في أمسية صيفية مقمرة، والشاعر في حالة نشوة ويخشى فقط نهاية الطريق حيث يحين فراقهما)، يخاطبها قائلاً: أيتها الفراشة التي ما خلقت لكفّ انسان/ أيتها الروح التي لم تخلق لعيني بشر» ويقول: «رأيتك في المعبد الصامت، ترمقين تمثال العذراء/ ولكني ما رأيت سوى هالة نورانية تحيط بشعرك/ هالة تضاءلت، في عيني، بجانبها هالة العذراء». وفي «أنفاس محترقة» يخاطبها بقوله «يا من أطرق بين ذراعيك أبواب الأبد». وتغلب على قصائده في الحب لغة الدين والطقوس وصور المعبد والمذبح والصومعة والليل والشموع والصلاة، ففي «الجفاف» مثلاً يتحدث عن زهوره التي راح يرويها بشفتيه ويدفئها بأنفاسه: «كم سهرت الليالي راكعا / مستجديا مطراً يرويني ويرويها» كي يقدمها قرباناً لمعبودته. ويقول في

«الحب في معبدي»: «أمام المذبح أوقدت شمعتي / أقرأ في ضوئها صلوات حبي/ مهما قصرت ظلالها دوني../ إن الشمعة تزداد اشتعالاً وأنا أفنى في أعماق صلواتي/ وأرتل في نورها المصفرّ/ فيعلو الشحوب وجه صلاتي./ إنني أعبدك راكعا في ظلها/ لكني لست في معبدي وحدي/ إن رسول الزمن مختبئ بها».

وبقدر تقديس الشاعر لمحبوبته كان احباطه في الحب صدمة أقوى مما يحتمله رجل في حساسيته فيقول في «نحو الغروب»: «إن الليل عميق يامعبودتي/ لكن أعماقه ضاقت بآلامي/ أحكي له في دمعة أشجاني/ وأرسل له في آذان الصمت أغنيتي/ لكن أصداءها ترتد في ذلّ إلى قلبي/ فيطويها.. » ويقول «وفي هذا الليل العميق القاسي/ يبدو القمر يامحبوبتي/ مضيئا كوجهك/ لكن قلبي ما عاد يعشقه/ لم أعد أرى فيه سوى الظلال الميتة / التي يفنى بها ظلي/ والتجاعيد المتحجرة/ التي لا أنفراج لها سوى خلال دموعي/ تنفرج في أطلال ابتسامات/ أشدّ بلى منها ابتساماتي» ويقول: «تحت تلك الظلال العميقة/ التي ينحتها القمر البالى/ في جسد الليل/ جلست يامعبودتي / أدفئ أغانيّ في بقايا شعاع أخمدتها الرياح / قدمتها لك في دفء قلبي/ فلم يطرب لها قلبك/ عدت كسيرا / أنسج جناحي من بسمات ما وهبتنيها الحياة». الاَّ أن الشاعر لكبريائه لايقبل الرثاء فيقول في «البقايا»: «لاتنظري مشفقة / على يديّ المرتعدتين» وفي «أحلام العودة»: حين عدت إليّ مع الفجر/ وقد ملأت كفيك زهورا/ وحشدت في عينيك نظرات الرثاء/ نكّست رأسي لم أنظر اليك/ فقد وطأت زهوري/ وتركت البقايا تئن في قدميك».

كذلك تطور موقف الشاعر إزاء الموت فتحول من الموقف الرومانطيقي

الشائع الذي يرحب فيه الشاعر بالموت ونجده في أولى قصائده «آلام وأحلام» وهي القصيدة الوحيدة المؤرخة ١٩٤٢ وهذا يعني أنه كتبها وهو في السابعة عشرة من عمره ويقول فيها: «إني أقوم بدوري في مهزلة الحياة ولكنه دور طويل مملّ./ ولكن لا.. لا.. هاهي خاتمة الرواية تقترب / ما أروعها، وما ألذّها.. كم أنت جميل أيها الموت» هو موقف رومانطيقي صرف كما نرى في قصيدة الشاعر الانجليزي (جون كيتس) الشهيرة «أنشودة إلى العندليب» تتحول رؤية منير رمزي للموت عندما يعاني تجربة الحب المحبط فيصبح الموت حقيقة ماثلة أمام عينه تحدد رؤيته للوجود وتصبغها بلون قاتم فيختلط فيها الواقع الكئيب بالأحلام المزعجة وتضفي على الصور الشعرية مسحة من السيريالية ومزيداً من الكثافة والغموض. طبعاً كان الشاعر على استعداد لتقبل هذه السيريالية ففي «الجريمة» مثلاً وهي من أولى قصائده نجد هذا الوصف: «وحلقت طيور الفجر على بحيرات/ من دماء.. / انعكس لونها القاني على وجه الفجر/ فانجاب شحوبه../ ووقفت الطبيعة.. خرساء/ أمام جرم الإنسانية» ويكاد يكون لوحة تعبيرية Expressionist على الأسلوب الألماني. وفي بداية «القافلة» يقول «في ظلال الوحدة التي لم تبددها/ قطرات فائضة من أكف النجوم/ قبعنا ننسج من أغاني الظلمة أردية الرحيل / ضربنا في الطريق بأردية ممزقة/ نسيج جفون أثقلها السراب». هذا شعر أقرب في أسلوبه وغموضه وصوره وبنيته اللغوية إلى الشعر الحديث منه إلى الشعر الرومانطيقي. وما كان بمقدور منير رمزي أن يقوله لو لم يكن يتميز بغرابة الخيال وأصالة الصور التي نجدها في قصيدة مثل «قابر الأحلام». وفيها يقول الشاعر إنه دفن حطام أحلامه في «قطعة من الليل/ لم تمتد اليها أصداء الأغنيات المرحة» وأسرع نحو النهار ظناً منه أنه «سيخطر في الدنيا بلا أحلام» وسرعان ما اكتشف أنه كان يخدع نفسه: «اني أحس بالرعدة تقتلني/ وأنا أرمق الدماء المتساقطة من أظافري/ وأنا أنبش في الأرض

كالمجنون/ باحثاً عن قبر أحلامي/ زاحفاً على ركبتي في إعياء/ متحسساً براحة يدى / التراب الجاف الذي بللته دموعي/ وكلما أرسل القمر أشعته/ لامعة في سخرية/ على قطرات دمي التي لوثها التراب/ رفعت قبضتي المتقلصة في وجهه/ لاعناً بسماته البلهاء/ ثم أعود كسيراً / أحفر في الأرض كالمجنون/ باحثاً عن قبر أحلامي../ في كل مكان».

وفي هذا الصدد ينبغي التنويه بنزوع الشاعر نحو الرمزية في الكثير من شعره وأبدع مثل لذلك قصيدته «التماثيل»، وفيها يوحي بأن التماثيل (أي الآلهة) هي من صنع الإنسان أصلاً وينتهي الإنسان بتحطيمها حين يدرك زيفها: «قد شربتم فأفيقوا/ لاتبكوا الرماد الخامد/ دموعكم أنقى من حطام التماثيل التي لامعنى لها».

ولعلّ من أبدع قصائد منير رمزي مطولته «الرباعيات» وتبلغ ١٤٠ سطراً وفيها تجتمع «تيمات» أو موضوعات المجموعة فتؤلف فيما بينها سيمفونية من ثلاث حركات أو ثلاثة أجزاء، الجزء الأول يبدأ من الطفولة والثاني يدور حول تجربة الحب والثالث محوره الموت. ويبدأ كل جزء بهذه الرباعية أو بتنويعات عليها: «الكل ينسى ويمضي/ الحلم يمضي والليل ينسى / لكنها تمضي ولاتنسى/ شهقات طفل بحلم كئيب» أو «صلوات الحب بمعبد مشئوم» أو «أحلام الموتى في ليل أحيائهم.» وفي «الرباعيات» «أصداء من سفر «الجامعة» من العهد القديم حيث نجد « الكل باطل» في الإصحاح الأول و«الكل ينسى» في الإصحاح الثاني وحيث تسود النظرة السوداء للوجود التي تؤكد أن «يوم الممات خير من يوم الولادة» و «الذهاب إلى بيت النوح خير من الذهاب إلى بيت الوليمة» و «الحزن خير من الضحك». ومع ذلك فلا تخلو هذه القصيدة الحزينة «الرباعيات» من المشاعر الإنسانية التي هي وليدة الشفافية

ورحابة الروح كما نرى في هذه لرباعية الرائعة: «يامن تشيعون موتاكم على ألحان موسيقى/ وتنثرون على أجسادهم باقات الزهور/ اعزفوا موسيقاكم لليائسين من أحيائكم/ واتركوا الأزهار تذوي في سلام».

بقي أن نقول كلمة عن موسيقى هذا اللون من الشعر. لقد شاء الشاعر أن يتجنب الكلام الموزون المقفى وآثر أن يستخدم ما يسمى الآن بقصيدة النثر بموسيقاها الخاصة التي تنبع من بنية الأفكار والمعاني بقدر ما تأتي من أصوات الألفاظ (وأنصع مثل لذلك قصيدته «التماثيل» بحركاتها الدرامية). الا أنه في بعض الأحيان وعن غير وعي فيما يبدو يقترب نثره من موسيقى الشعر العربى التقليدي فيأتي كلامه موزونا على بحر أو آخر مثل «اقتفى في الليل همسات لحبى/ باحثا في الصمت عن صوت حبيبى» من قصيدته «الحنين» أو «هاربا في النور من أشباح ليله/ خائفا في الليل أشباحا بحلمه» أو «الحب يأوينا، والموت يرعانا»، في المعبد المشئوم من «الرباعيات» أو «طمئنينى، هدئينى.. واعزفي لحن الخلود» من «وداعا» أو «قد شربتم من دماكم فارتويتم» و «قد شربتم فأفيقوا» و«قد سكرنا وأفقنا» من «التماثيل» وورود مثل هذا الكلام الموزون غير المقصود على نحو طبيعي تلقائي داخل بنية قصيدة النثر من شأنه أنه يضفي على شعر منير رمزي لوناً فريداً من الموسيقى يجمع بين الألفة والتجديد.

لقد أمكنني أن أنشر جزءاً من «الرباعيات» في كتابي «مختارات من الشعر العربي الحديث» عام ١٩٦٩ وانه ليسعدني الآن أن سمحت الظروف بأن أتعاون مع صديق العمر إدوار الخرّاط على نشر كل ما أمكننا أن نعثر عليه من قصائد منير رمزى أخيراً وبعد مضيّ أكثر من نصف قرن على كتابتها.

محمد مصطفى بدوي

جامعة اكسفورد ١٩٩٦

تقديم

بقلم إدوار الخرّاط

كتب محمد منير رمزي قصيدة النثر في الاسكندرية، خلال ثلاث سنوات، من ١٩٤٣ إلى ١٩٤٥. كما كتب بالانجليزية مايرقى إلى مستوى رفيع بكل المقاييس.

كان عندئذ طالباً نابغاً في قسم اللغة الانجليزية، كلية الآداب.

لم ينشر شيئاً من شعره في حياته.

وعلى أثر قصة حب فاجعة قتل نفسه في ٢٥ مايو ١٩٤٥.

لاشك أنه في هذه الكتابة كان يستلهم – على نحوٍ ما– ما كان يدمن قراءته من الشعر الرومانتيكي الانجليزي في لغته الأصلية، والشعر الرومانتيكي الفرنسي وغيره، مترجماً. ولكن خبرة الحب العنيفة التي اكتسحت روحه الرقيق كانت هي الرصيد الأساسي والحافز الحقيقي لكتابة هذا الشعر، فضلاً عن تفتح حساسيته وقلقه العقلي أمام أسئلة كبرى، من نحو قضايا الموت، والمصير، والعدل.

مازلت احتفظ حتى الآن بأكثر من كراسة كتبها منير رمزي بخط يده، هي مختاراته من أشعارٍ مترجمة مما كان ينشر في مجلات مثل الهلال والمجلة

الجديدة والمقتطف والرسالة وغيرها.

وعلي رغم مايبدو - الآن- في هذا الشعر من جنوح قد يكون مسرفاً نحو لغة وسبحات التحليق والخيال أو التجريد أو العاطفية، إلا أن نواةً صلبة من الشعر فيه تظل عصية على الزمن.

فلعل ذلك يرجع إلى أنفاس المرارة أو السخرية الرفيقة الدمثة، أو الصحو على جوهر الألم من غير السقوط في مهاوي الرثاء للذات، بل، على العكس، تحدي الوجع ورفض الشفقة الرثة، واعتزاز الشاعر بكرامته:

«وقد حطمتُها تلك الكأس
التي تسقيني منها الحياة...
حطمتُها
في قسوة
على شفتيّ
حين غمرتِها بنظرات الرثاء

من «البقايا»

اننا لايمكن في قراءتنا لهذا الشعر أن نخطئ الاستجابة المرهفة الذكية لقيم حسية وشعرية في الوقت ذاته، هي قيم البحر والصخر والرمل والشاطئ مرتبطة بيدي المحبوبة، وشعْرها ونظرتها، وقد أُكسِبت كلها دلالةً أكبر بكثير من «معناها» اليومي المألوف، هذه هي التيْ تنقذ هذا الشعر من التردي في حفرة الزمن العميقة التي لاترحم، وتبقيه حياً وناضراً.

فمن الواضح مثلاً أن الموج والمحيط والليل عنده ليست مجرد تسميات لوقائع بل هي تحمل شحنة أكبر بكثير من معناها المعروف المألوف.

«أيتها الروح...
لِمَ تتركينني أصارع الموج
في محيطٍ لاشواطئ له
لِمَ تتركينني أضرب في الأرض
في ليل لافجر له» من «وداعا»

ولايكاد تخلو قصيدة من قصائد منير رمزي من انبعاث لهذه القِيَم.

إن ولع منير رمزي بشفرات البحر والموج والشاطئ والرمال والرياح تؤكد انتماءه الذي لاشكَّ فيه إلى ما أسميه «مدرسة الاسكندرية»، وهي الاسكندرية التي توقِع في أسرها، بلا فكاك، كلّ من عاش فيها من شعراء وكتاب وفنانين.

إن هاجس الموت، وصور التمزق، وصرخةً مكتومةً دائماً تتطلب «الخلود» أو تدحض الفناء، ترود هذا الشعر وتعطيه – حقاً – مذاقه الرومانتيكيّ العميق، بمعنى أصيل وغير شائع لأنه مذاق يزداد كثافة وغنىً بما يبتعثه الشاعر من أخيلة وصور سيريالية جريئة حتى بمقياس زماننا وليس فقط بمعايير منتصف الأربعينات في الشعر العربي.

❖ ❖ ❖

حفزني إلى جمع هذه الأشعار منذ البداية، ثم توثيقها ونشرها الآن بعد أكثر من نصف قرن من كتابتها عوامل عدة:

منها أولاً الحبُّ لصديقٍ ظل قائماً في وجداني، طوال هذه السنوات كلها دون أن تمسه السنوات، حياً وحاضراً وقريباً إلى الروح. فإذا كانت آخر أشعاره في الرباعيات هي:

«الكلُّ يمضي وينسى
الحلم يمضي والليل ينسى
لكنها تمضي ولاتنسى
صرخات الموتى في ليل أحيائهم»

فإن أشعاره، وحياته، لم تمضِ ولم تنسَ - عندى -قط، بل عمرت ليل حياتي الطويل، وملأته بحرارة خاصة ويحس من الحضور بل من القربى الوثيقة.

ثانيا، القيمة الأساسية الفنية في شعره، بغض النظر عن الصداقة الشخصية القوية. وهي قيمة أحسست أنها تتجاوز الزمنية على الرغم مما قد يبدو في لغته ورؤاه من سرفٍ رومانتيكي، أحياناً، كما أسلفت، فقد كان ذلك من ضرورات الحقبة التاريخية، ولكنها رومانتيكية توشك أن تنتقض على نفسها، بما تحمله في داخلها من عناصر تتجاوز الرومانتيكيّ وتؤذن - في وقت مبكر جداً- بمقدم سيرياليةٍ مصرية.

ما يتجاوز هذه الرومانتيكية إذن هو مجمل الرؤى المصوغة صياغة فيها أصالة وحس يمكن أن أراه يقع فيما وراء الواقع، أي ماينتمي إلى المنحى السيرياليّ في الرؤية والصياغة على السواء، وهي رؤىً وتشكيلات تزداد قوة وإيغالاً في تخوم «مايفوق الواقع» كلما ازدادت خبرة الشاعر غنى وكثافة، على قصرها من الناحية الزمنية البحتة، كأنما هي في نهاية الأمر تتحدى هذه الزمنية ذاتها.

من هذه الصور الأخيلة مثلاً:

«حلّقتْ طيور الفجر على بحيرات من دماء» من «جريمة الانسان»

«إني ألمس في عينيك حلما»
حلماً جميلاً.. شائكاً في جماله

من «صلوات قلب»

«... تلك الظلال العميقة
التي ينحتها القمر البالي
في جسدِ الليل»

من «نحو الغروب»

«وباءت نفسي وقد نالت من الفجر أشواكه»

من «نحو الغروب»

«تلك القبور البيضاء المتناثرة فوق اللُّجة»

من «قابر الأحلام»

... أشباح الرياح قابعة بها
ناسجة من أجسادها خيوط الصمت...»

من «ليالي الشتاء»

«قبعنا ننسج من أغاني الظلمة أردية الرحيل.
ضربنا في الطريق بأردية ممزقة
نسيج جفونٍ أثقلها السراب»

من «القافلة»

شجرة على الطريق آوته ليلاً...
شعاع القمر سجين في أغصانها
جذورها السوداء تمتد في صدره

من «الرباعيات»

«وظلمة الأقمار مفترشة جفنيه
وبردالشموس ينخر في عظامه» من «الرباعيات»

وغير ذلك كثير.

ولعله مما يلفت النظر حس منير رمزي المبكر بقيمة الألوان، في شعره، مما كان يندر الحس به في شعر ذلك الزمان، ولعله ليس كثيراً في الشعر العربي حتى الآن، مما يضفي على قصيدة النثر- إلى جانب موسيقى الجرْس والنغم كامنةً حيناً وسافرةً حينا، وبالتضافر معها- أبعاداً تشكيليه بصرية حادة تتنافى مع تهويمات «شِبْه- الرومانتيكية» التي كانت سائدة في أشعار تلك الحقبة.

واللون السائد عنده - كما قد نتوقع - هو لون السواد الذي يتردد باستمرار. ولكنه يقول:

إن ألوان الغروب تجتذبني في صمت» من «نحو الغروب»
لكني أذوق منها / آلام ذلك النجم الأزرق..» من «البقايا»
رددي أنفاسك التي تصوغينها من زرقة النجوم» من «أنغام اندثرت»
«قطرات العرق التي تنحدر حمراء قاتمة
في التجاعيد المصفرة..في الوجوه التي أظلمتْها زرقةُ الألم»
من «الدموع الأخرى»

هذا إلى جانب مقدرة على التهكم الرفيق بالذات، فلعل في السخرية من الذات، على رهافتها، دليلاً لاينكر على تفوق الشاعر على آلامه، ثم أن هذا الوعي بالمرارة -بمعنى رفض الاستسلام لها- هو كذلك مما ينقض الرومانتيكية المبذولة ويكسبها صدقاً خاصاً.

«انني أقوم بدورى في مهزلة الحياة
ولكنه دور طويل ممل» من «آلام وأحلام»

«تسلل صوت ساخر، صوت القدر
يالك من طفل.. أتخطُ اسمها فوق الرمال
انها صفحة لاتلبث أن تُطوى
من «خلود»

وهو عندما يقول: **صمت يضج بالسخرية**، (في «هناك حيث الفراغ الممتد بلا نهاية») فكأنما يصف جانباً من بوحه الرومانتيكيّ الذي يكمن فيه هذا «الصمت الذي يضج بالسخرية»، وهو في ذلك قريب من قوله: «وأقبلت النسائم اللاذعة تتهالك ساخرة» (في «أصداء») فكأنما السخرية من الذات قد حولها الشاعر إلى سخرية توقعها النسائم اللاذعة، أو تكمن في قلب الصمت أو تلمع في أشعة القمر (في «قابر الأحلام»)، أو يرددها صوت القدر: «كل شيء يسخر مني.. فأنزوي عن كل شيء و«كل شيء» هنا تشتمل أيضاً على الذات، أما الانزواء عن كل شيء» فيدحضه حس الشاعر القويّ بالطبيعة وبخبرة الحب وبافتقاد العدل معاً، إنه – في حقيقة الأمر – متورط حتى العنق – كما يقال – في قلب «كل شيء» وتتسلل النسمات الساخرة / تثير الرماد الساكنَ الذي لاينتهي في نفسي» (من القصيدة نفسها).

ولعل قصيدته التي كتبها بالإنجليزية «بقايا شموع» هي أجلى بيان لروح السخرية العميق والتهكم على الذات، وهنا تخلت السخرية عن رقتها وإن كانت لم تتخلّ عن رهافتها وذكائها.

❖❖❖

كتب منير رمزي قصيدة نثر ذات إيقاع مرهف –صوتيّ ومضمونّي معاً– في وقت مبكر جداً. وبشكل متميز عما كان معهوداً في «الشعر المنثور» حين

ذاك- بل هي قصيدة تختلف تماماً عما كان يغلب على ذلك «الشعر المنثور» من تسايل عاطفيّ ورثاء للذات عاكف على أوجاع النفس المغلقة على نفسها.

إن قيمة التكرار الصوتيّ لها وقع دلاليّ ينجو بها من مغبة التكرار الآليّ، هذا إلى أن الموسيقى الصوتية البحتة- مما يُدخلها أحياناً في سلك بحور الشعر الخليلية كما لاحظ بحق الدكتور مصطفى بدوي- تتضافر أساساً مع موسيقى مضمونية تقوم فيها الصور والمجازات والإحالات إلى مشاهد طبيعية وجدانية معاً، مقام التشكيل النغميّ الدقيق.

أي أن قصائد منير رمزي على نثريتها الظاهرية، موسيقيةٌ من حيث المستوى الإيقاعي البحث، على المستوى الصوتي، وموسيقية أيضاً من حيث مستوى الرؤى والتأملات والدلالات في تباينها وتوافقها وتقابلها وتراسلها.

والأمثلة والشواهد على ذلك كله مما يحفل به هذا الشعر.

إن السمة الفذة في هذا الشعر هي المقدرة على التأمل الفلسفي في قلب تجربة الحب المحبطة وعلى مواجهة أسئلة ميتافيزيقية كبيرة لم يجد لها الشاعر حلاً إلا بالكتابة أولاً، ثم باختيار الموت، في شجاعة، أخيراً.

«ولتفْنَ شفتاي في شفتيك

يامن أطرق بين ذراعيك أبوَاب الأبد» من «أنفاس محترقة»

الشهادة، في «يومياتٍ قديمة وحديثة»، التي أُعيد نشرَها هنا، مع تعديلات طفيفة جداً، بعد أن نشرت في سياقِ روايتي «رقرقة الأحلام الملحية» (وهي رواية لعل أحداً لم يقرأها في مصر، نُشرت في بيروت، وتخطاها النقد

في مصر) هي بالفعل ما كتبته في ذلك الزمن البعيد، في١٩٤٤ ؛ كنت عندئذ في الثامنة عشرة، ولعل منير رمزي كان يكبرني بسنة واحدة ؛ ثم ما كتبته عقب انتحاره، وعلى وجه الدقة في ٢٧ مايو ١٩٤٥، أتركها للنشر، بكل حرارتها ولوعتها– وربما سذاجتها –كما كُتبت حرفياً، وأخيراً ماكتبته في العامين١٩٩٢ و١٩٩٣.

فإذا كانت هذه «اليوميات – الشهادة» تبدو في بداياتها ساخرة وخفيفة الوزن،أ فإنها أساساً نابعة عن محبة حقيقية لكل من تناولته من أصدقاء، ولا شك أنها كتبت بروح الحب والتمرد، تلك الروح التي كانت تغمر حياتنا في تلك الأيام (ألعلها مازالت تغمرها حتى الآن؟) ولعل فيها قيمة وثائقية ما، مع ذلك.

أما «حسن» فقد ضاعت مني خيوط حياته في غمار سنوات العمر، عرفت أنه ارتقى إلى منصب هام في وزارة التربية والتعليم، فقد كان جغرافياً، واشتغل بالتدريس، وأعير للخارج، ولكني فقدت آثاره على كل ما بذلت من جهد لاقتفائها. أَحَيٌّ هو، أم طوته يد الموت الممدودة المتربصة؟

«سامي» هو البروفيسور «سامي علي » الذي أسهم إسهامات متميزة في التأليف والممارسة وتأسيس مدرسة جديدة في مجال الدراسات النَفْس – جسمية Psychosomatiques وقد رأس معهد الدراسات النَفْسجسميّة في السوربون، باريس، سنوات طويلة، وهو رسام مرهف رقيق الأنغام اللونية، منذ أيام الصبا الباكر، وله ترجمات جميلة وموحية ومضيئة لأشعار الصوفيين العرب القدامى، وقدنشر أكثر من عشر مؤلفات بالفرنسية والعربية.

أما «قدال» فهو الدكتور محمد عبد المتعال قَدّال، رحمه الله، وقدكان

له حضور قوي وشخصية غلابة قي حياتنا المدرسية، ثم في جامعة الأسكندرية، والأوساط النوبية فيها، حيث كان يقوم بأدوار اجتماعية لها أثرها وفعاليتها، وقد تلقى العلم في جامعة جلاسجو باسكتلنده، بعد حصوله على ليسانس اللغة الانجليزية من جامعة الأسكندرية، ودرّس اللغة والأدب الأنجليزي في جامعات الأسكندرية والخرطوم والرياض واليمن.

وليس الدكتور محمد مصطفى بدوي بحاجة إلى تعريف، هو الآن أستاذ متقاعد بجامعة اكسفورد، قد تخرج على يديه أول جيل من المستعربين الذين قطعوا الصلات بين عملهم وبين مفهوم «الاستشراق» القديم، وعرفوا اللغة والأدب العربي على أنهما عوامل حياة معاصرة وحيّة وقادرة على خوض غمرات الآن، في السياق الراهن والمستقبل معاً، وليس باعتبارهما تراثاً متحفياً عفى عليه الزمن، يدرس كما تدرس آثار الأمم الغابرة، وهو ما كان سائداً قبل مصطفى بدوي.

وبدوي شاعراً له تجارب إيقاعية في الشعر متميزة، وله ديوانان مطبوعان ومؤلفات وترجمات عديدة بالعربية والانجليزية.

أما سُمية فقد آثرت أن أحجب اسمها الحقيقي وإن كان غير عصيّ على التحقيق، وهي اليوم تعيش في الولايات المتحدة الأمريكية، لم تتزوج، وقد جاوزت السبعين من عمرها، كما جاوزناها جميعا نحن الذين مازلنا أحياء من هذا الجيل.

أشكر الدكتور محمد مصطفى بدوي - صديق العمر - لكل مابذل من جهدِ المحبة في تجميع وتوثيق مخطوطات شعر منير رمزي، استكمالاً لما كان في حوزتي منها، ولمقدمته الحصيفة المضيئة.

تحرير الكتاب، وترتيب القصائد، واختيار العنوان «بريق الرماد» جاء على مسئوليتي، وكلّ خطأ غير مقصود فأنا وحدي مسئول عنه وأعتذر عنه سلفاً.

إدوار الخراط

٢ أغسطس ١٩٩٦ القاهرة

❖

شهادة في يوميات

١٩ مايو (السبت) ١٩٤٤

سلسلة من المواقف السوداء. لا فائدة مطلقاً. قرأت ما كتبه منير.

❖

٢٧ مايو ١٩٤٤

ليس لدي ما أفعل. قرأت ساعتين. جاءتني نوبة عدم الاحتمال المعتادة. لايمكن أن أقرأ أكثر. مستحيل. أتثاءب. وثم نسيم رقيق يهبّ من السماء الزرقاء الشاحبة. سألت نفسي: أتريد أن تتسلى؟ لنتكلم عن قصة واقعية. وأجابتني نفسي: فليكن!

أذكر ذلك الصباح الشتوي في ديسمبر سنة ١٩٤٢ . أعتقد أن المحاضرة لم تكن قد راقت لي فخرجت أمشي مع حسن. كانت صداقتنا ماتزال نابتة قريباً. ناشئة. كان قد قرأ «الأحدب» (قصتي«الشيخ عيسى» فى إحدى صورها الأولى) وطار إعجاباً بها، في ذلك الصباح كانت السماء أمطرت قليلاً ثم أقلعت وكان الجو رطباً. وثمة نوع من اللذع في الهواء.

كان حسن مصاباً ببرد أيضاً. وما يفتأ ينفخ أنفه. وقد بدأ يقص لي قصته

الواقعية. كان يحكي كيف أحس بسُميّة أول مرة. كان يعرفها بالطبع في الكلية ولكن كما يعرف كل البنات الأخريات، يعني «من بعيد كده». وكانت سمية في أول الأمر نوعاً من «الحدث» الخارق، ظاهرة لاتصدق. كان مجرد وجودها في الكلية قسم الانجليزي سنة أولى مع الأولاد حدثاً: بنت الدكتور أبو نادي الذي كان شخصية نقرأ عنها ونعرفها من الشعر والكتابة والنحالة فقط، لا إنساناً يوشك أن يقع في الخمسين. تخين وطويل وبكرش مستدير وطربوش. دائماً الطربوش. وحديثه – في مجمله وكما سمعته– تافه. لا لم يكن هذا الدكتور أبو نادي. بل كان أبو نادي هو الشاعر مؤلف «الآلهة» و«ايماني» ومؤسس جماعة «ضد ديونيزيوس» وصاحب مجلتها وراعي حركة التجديد في الشعر.

في أول يوم سألها مُدرّسهم: كم كتابا قرأت في الصيف وما نوعها؟ فكانت الإجابة حدثاً أيضاً تناقلته الرواة في كل كليات الجامعة من أدنى ربوة العباسية إلى أقصاها، قالت إنها لاتذكر كم كتابا قرأت. انها قرأت عشرات ويمكن مئات. كان معنى إجابتها يعني أنها قرأت كل الكتب التي في العالم. حسناً إذن.

كان حسن وقدّال في الفصل فيما بين المحاضرات. والأحاديث بالطبع تطن. ولابد أن شخصاً كان يخطّ شيئاً على السبورة السوداء وطلبة يدخلون ويخرجون ويتناقشون ويضحكون. وكل هذا الجو الذي يعرفه الطلبة بين المحاضرات. كان حسن يريد أن يشرح لقدّال نقطة ما. فجلس على كرسي الأستاذ ليقوم بهذه المهمة. ولكنه لم يجلس في الواقع، تماماً – كما تواضع الناس على الجلوس– بل انقلب فجأة لأن قدّال كان قد أزاح الكرسي إلى جانب بسرعة وصمت، تلك الخدعة القديمة. حسن يتشبث بالمائدة ورجلاه في الهواء. وجهه بالطبع تعبير عن الفزع والخوف والمفاجأة الذي يجعل وجوه

الناس في مثل هذه المواقف مضحكة بذاتها. وفي هذه اللحظة المسرحية بالذات دخلت البطلة. دهشت سميّة بالطبع. وكان الأولاد يضحكون بصوت عال بينما أخونا منقلب إلى الأرض يطوّح ويضرب برجليه الطويلتين جداً، في الهواء.

ما أن دخلت حتى كانت لحظة اضطراب وصمت. ونهض المسكين يتعثر ووجهه بالطبع كالفطيرة المكبوسة وحمراء فوق البيعة.

كانت سُميّة اسبور وكانت تعرف الأولاد زملاءها في الفصل واحداً واحداً وأظن أنها لم تضحك.

وفي تلك الأيام كانت سمية تبتدئ تظهر في حياة الأولاد: أول فتاة عرفوها. كلهم بالطبع عشاق مساكين. كانت أول فتاة تحدثهم ببساطة وصراحة وتمشي معهم وتناقشهم وتخرج معهم أيضاً بعد الجامعة -كان ذلك عصرهم الذهبي. أمسيات المعهد البريطاني. يتهافتون على المعهد مساء كل ثلاثاء ليروها ويمشوا معها في الشارع جماعة تثرثر وتتناقش، بأسلوب مهذب، عن الأدب وعن الشعراء. وتقفز في حديثهم تلك الكلمات الانجليزية التي عرفوها حديثاً وذاكروها بالأمس عن الدراما والشعر والنغم والقافية والوزن والأسلوب.. تتواثب عن خواطر نصف مولودة ونصف ميتة. وتتواثب معها ضحكات مضطربة وهم يحاولون أن يظهروا أنهم مستمتعون بأنفسهم. كان ذلك في البداية. وفي البداية كان ذلك. ولم يكن أُحد يعرف على الأرجح ماذا ستكون النهاية.

أذكر في تلك الأيام كيف كانت تقص على بدوي قصة. قصة حفنة من البنات يتنافسن في السرّ على انتخابات اتحاد الجامعة، أو شيء من هذا القبيل، ويحتفظن طول الوقت بمظهر عدم المبالاة ويقمن بأدوار التضحية وايثار الغير..إلى آخره إلى آخره، تحكي، صوتها رفيع وبناتي- كتلميذة في الابتدائي - وعلى أنفها نظارتها المدورة المكبوسة على عينيها، شعرها مفروش على

كتفيها نازل إلى الوراء – ولست أدري ربما كان مضفوراً في ضفيرتين طويلتين متدليتين على ظهرها. فستانها يصل إلى نصف ساقها من تحت، حذاؤها صغير كأحذية الأطفال. وهي تهرول على الرصيف وإلى جانبها بدوي وخلفها الشلّة.. بنت تلميذة نصف انجليزية بنظارة سلك وكعب جزمة واطئ، نعم أمها كانت انجليزية.

ولابد أن حسن بدأ جنونه من أيامها.

كانا يرجعان البيت في بعض الأحيان بالليل من طريق واحد: محرم بك الرصافة، صحيح أنه كان يتجاوز شارع بيته ليمشي معها حتى بيتها، ولكنه في النهاية طريق واحد.. وكانا بالطبع يتحدثان عن الشعر والكتّاب الانجليز والدراما.. يعني، أليس هناك عندهم غير هذه الموضوعات؟ مالها – يعني– حاجات القلب؟

لا أعرف التطور الذي حدث حتى أن المسألة انتهت في ذلك الشتاء إلى أن سمية وحسن كانا يخرجان معا وحدهما – في أحيان ليست كثيرة بالضبط لكن متكررة – ويذهبان إلى السينما، معا، وحدهما.

وفي الكلية كان الفتيان بالطبع يشاهدون عجباً – ويعيش بعضهم فعلاً في نوع من العجب – أن يخرجوا مع بنات. وأن يناقشوهن في مسائل تتخذ شكل الخطاب العقلي الرصين وتحتها جيشان نزوعات محبوسة بعناية، ومع هذا كله– أظن أنه في كل مكان في العالم يوجد فيه نساء ورجال، ولو كانوا أطفالاً مراهقين، كما كان الأمر في حالتنا– تلك الموجات الدائمة الصعود والهبوط من الوشايات والتلميحات والمفتريات بالحكايات والهمسات والإشاعات. كانت الموجات هنا على شيء من العنف تتناثر بالمياه والزبد وترتمي على الأولاد تبلل جوانحهم العطشانة.

سُمَيَّة وحسن – زقزوق وظريفة – في عالم وحده، كأنما لايُحسان لا بالمغامرة ولا بالغرام.

حدث ذات مرة أن كان الاثنان على ميعاد. وفي سينما رويال هبط عليهما زميل من الكلية، ليس من الشلة. ظنت سمية أن حسن، على سبيل التفاخر الصبياني، هو الذي دعا هذا الزميل إلى السينما لكي يراهما معاً أو شيئاً من هذا القبيل –تلك الهواجس البناتية: «هاهو يريني لأصدقائه. يريهم أنني ماشيه معه». وحدثت ضجّة وعَجة.

جاء حسن في ذلك الصباح الاسكندراني الشتوي من ديسمبر يشكو لي. وعنده برد، يتف في منديل غير نظيف تماماً وينفخ أنفه وعيونه حمراء. في صوته نبرة انفعال حقيقي وكان يعتقد، بجد، أنه بريء. أن غرضه نبيل. أن هذه الصلة بينه وبين سمية هي تلك الصلة الرومانتيكية التي يقرأ عنها أخيراً، في الترجمة العربي، التي كنا نعملها نحن، عن طاغور مثلاً أو لونورمان أو سولى برودوم.

قال إنها هي التي أنقذته من خمول السنوات الذي عاش فيه قبل ذلك. إنها هي التي فتحت آفاق نفسه و«أرته الحياة». و«رفعته إلى سمائها» و«جعلته نبيلاً رقيقاً يعرف الجمال» كان يضع فوق فوران جسمه السريّ الخجل من ذاته قناع تلك الرومانتيكية العذبة التي كان يخاف أن يسميها الحب.

بلا شك كانت أحشاؤه تضطرب عندما كان يراها. لماذا؟ لا تسلني. كان قلبه من غير شك يدق ويدق وكنت بشيءٍ من المكر ومن العطف أرى وجهه يحمر، ويرجع كالفطيرة المكبوسة الحمراء. بلاشك كان يعتقد أن هذا هو الحب والتسامي إلى الجو الرومانتيكي الذي يحكون عنه في الكتب. اعتقاداً كان جاداً إلى آخر درجة وكان يظن نفسه حقيقة أنه يحب هذا النوع من الحب وأنه يحيا في تجربة رائعة.

أنا تأثرت – في الحقيقة –بهذا كله وأيقنت أنه يتعلم وأن في روحه نوعاً من الصدق يتفتح له. وهكذا كان أول ما انتبهت حقا لما يدور.

وأظن أن حسن كان يبكي في ذلك الصباح الشتائي من ديسمبر، وهو يحكي لي وصوته يرتجف كان يبكي حقيقة – بغض النظر عن أنه كان عنده برد وزكام.

انتهى الدور الأول من الحكاية: يذهبان إلى السينما وحدهما. يمشيان ساعات طويلة، قريبين جداً من أحدهما الآخر لكن لايتلامسان أبداً – يحرصان كل الحرص على ألاّ يتلامسا مطلقاً– وتحدثه هي بالأقاصيص الجارية عن البنات والصبيان. ويحاول هو أن يتكلم عن الأدب والكتب والشعر. ويحاول أن ينكت، يقول نكتة أو اثنتين، لاينجح كثيراً، ويضحك، وتجامله بابتسامة صغيرة، ويضحك، ثم يجلسان في السينما جنبا إلى جنب مهذبين مؤدبين عاقلين. هل في ذهنه كل الأفكار المقلوبة عن الهوى العذري والحب الأفلاطونيّ والبراءة والنبل، إلى آخر ذلك، أم في جسمه ذلك التوتر الفيزيقي البحث، يحاول أن يكبته، أن ينكر الانتصاب الذي يفاجئه هو، أن يلملم انشطار نفسه.

وإذن فهو الذي يخاف حتى أن يمد يده نحوها في عتمة السينما لئلا تلمسها رغماً عنه. وهو يضم رجليه إحداهما إلى الأخرى بشدة وبحرص ويجهد أن يركز انتباهه في الفيلم السخيف. هل كانت تحس بالضيق وشيء من الاستياء؟ كأنما كان ينكر عليها أنثويتها نفسها؟ أم كانت تستريح إلى هذا، وتطمئن. كأنما كان يثبت أنه بلا خطر. كانت هي أيضا ملء ذهنها رومانتيكية الكتب.

على كل حال.

(هكذا إذن مضت تلك العلاقة: تقليدية، وتقريباً نموذجية في تلك الفترة. علاقة شبه ذهنيّة، مبنية من اضطرابات المراهقة.)

وكان أول ما عرفت عن الدور الثاني من الحكاية في حوالي آخر السنة.

ذهبت إلي بيت حسن مرة بعد الظهر - وكانت صداقتنا قد توثقت، أعني زمالتنا أو سمها ماشئت- ووجدت عنده قدّال، وعندما دخلت لاحظت أن حديثهما انقطع فجأة. ثم يظهر أن قَدّال كان مستعجلاً أو شيئاً ما، وأراد أن ينهي الحديث الخطير. تصورت لحظة في الحقيقة أنني اقتحمت فجأة قاعة مؤتمر تقرر فيه المصائر، وكأنهما كانا يريدان أن لا يصل إليّ فحوى القرارات الحاسمة التي يتخذانها وعلى ذلك أخذ الكلام يدور عن «البطل» وعن أشياء أخرى مقصود بها طبعاً ألا أفهم.

ولكن المسألة منطقية وهناك قاعدة يمكن أن نأخذها مسلماً بها: كلما كان الناس يتكلمون بهذه اللهجة فاعرفْ أن المسألة تتصل بالجنس. فتاة أو امرأة أو ولد. وعلى ذلك غامرت بأن صححت لقدّال تعبيره عن البطل فقلت له: يمكن انت عاوز تقول «البطلة» ولاّ حاجة؟ إذا كان كده اتكلم وخد حريتك. ولكن قدّال في هذه اللحظة كان عموداً من أعمدة الأخلاق القوية المكينة، البطل الذي من وراء الستار يسعى لمصلحة الناس وخيرهم والحفاظ على سمعتهم، الصديق النصوح الذي وحده يعرف ماهي البواعث التي تدعوه لأن يكون صديقاً نصوحاً. ربما كان ضمن هذه البواعث في الحقيقة الغيرة على مصلحة الأصدقاء (أو أيّ نوع آخر من الغيرة) ولكن أعترف أنني حتى الآن لا أُسيغ هذا كله.

واستمرت الحلقة الثانية من الحكاية طوال الصيف. وليس لدي ما أعرف منها شيئاً فأنا كنت نسيت هذه المسألة أو على الأصح شغلتني عنها أشياء أخرى، حتى جاء حسن عندما فتحت الجامعة، السنة التي فاتت. عندئذ عرفت

بقية الحكاية، بهذا الشكل: «حسن يريد أن يتكلم مع صبحي في مسألة خطيرة. مسألة خطيرة جداً».

وصبحى في السنة الرابعة، الليسانس، قبلنا كلنا بسنة. طويل، في مشيته نوع من التؤدة. والرصانة المؤثرة وعيناه واسعتان تسقط عليهما أجفان ثقيلة شبه نسوية ولكنها رجالية جداً، مما يعطيه نظرة رومانتيكية من النوع الدايب ده. وعلى فمه شارب. وهو يبدو رجلاً كامل الرجولة وملؤه الدماء وليس الولد الطالب المعتاد الذي كنّاه كلنا. ساحر يعني، بالنسبة للبنات في الثامنة عشرة وماحولها.

ماهي المسألة الخطيرة؟ مضمونها هو الآتي: ماذا تنوي؟ هل تنوي أن تتزوجها؟ وهل تقدّر موقف أنها مسلمة - تقية وتصلي الفرض بفرضه (كما جاء حسن يحكي لي) وأنك مسيحي وأنك أيضاً متمسك بديانتك؟

وكان الموقف في الحقيقة عجيباً إلى حد ما، جدياً وهزلياً معاً، دون أن يدرك أحد منا جميعاً مدى هزليته. فلم يكن هناك أحد مستعداً لمبارزة من نوع القرن الثامن عشر مثلاً ولاحتى لمعركة باللكمات والصفعات من النوع الأمريكاني. كلاهما، حسن وصبحي، لم يكن مستعداً لأي شيء من هذا. وفوق هذا وذاك كانت الإجابة الواضحة في المسألة الخطيرة هي: وإنت مالك ياأخي؟ مسلم ومسيحية وما اعرفش إيه. إنت مالك إنت؟ فالواقع أن البنت في تلك الأيام كانت تتعلق بصبحي وتتشبث به جداً، وكانت ابتدأت تبدو أنيقة وسعيدة. وكان الصيف كله قد مضى في نشوة غرام بينهما. يذهبان إلى المندرة ويستحمان في البحر- تصور- وينتقيان صخرة في وسط المياه لأنفسهما. والحكايات تدور في موجات تتناثر حتى تصل إلى حسن من ناحية، عمداً بالطبع أو عن غير قصد نادراً، فيثور، يحمرّ ويزرقّ، وتصل الحكايات إلى أعمدة الأخلاق والغيرة على الأصدقاء فيعقدون جميعاً مؤتمرات ويقررون قرارات ويقدمون نصائح وإنذارات. ويبيّنون مشاكل الموقف وتعقداته للطرفين ويصلحون ذات البين.. إلى آخره. إلى آخره.

لم يكن هناك فائدة، فالبنت ميتة في أخينا– حسن يَكْمَدُ كل يوم زيادة ويطلق لحيته بشعراتها المتناثرة الموحشة، تتشاكى الوحدة، بعضها بعضاً فوق ذقنه. ورقبته ترفع كل يوم كأنما تطول وهي تخرج من ياقته المفتوحة وعليها الايشارب القديم، مع أنه يخبط في البلد بالشورت القصير القافز إلى أعلى فخذه الناحلة القبيحة، ويسهر في الليل يضرب في الشوارع إلى الفجر وحده. بذقنه. وبؤسه.

ومن الناحية الأخرى ثمة قصص وإشاعات عن المندرة وصخورها والبحر وما يدور في أمواجه وهما هناك. والحفلات والكونسيرات. وهما يأخذان دروساً في الموسيقى معاً الآن في معهد باجانيني في شارع النبي دانيال وسيذهبان إلى «أوركسترا بالستين» غداً. وفلان رآهما أمس. وهكذا.

وأخيراً جاءت مسألة الخطاب.

الخطاب. الخطاب.. يالذاك الخطاب.

(كم كنت أود لو قرأته. كم كنت أود لو قرأته.)

وحكاية الخطاب حكاية بذاتها.

رجع حسن إلى بيته ذات ليلة. وجلس إلى مكتبه– أوراق قليلة متناثرة أمامه والحبر المكبوب الجاف على الخشب. وسبورة سوداء ناحلة السواد إلى جانبه وثم كتب عربي وانجليزي قديمة، صغيرة، أغلفتها الورق باهتة أو باهتة التجليد. وروايات الجيب ملقاة هنا وهناك، وتلفت حسن حوله وقرر أن يكتب لها خطاباً.

وابتدأ بأن كتب على الظرف باللغة الانجليزية: A Necessary Explanation (شرح لابد منه). وانطلق حسن يكتب، طويلاً. ولكنني لم أقرأ

الخطاب.

على أنني فهمت من سياق الأحاديث أنه كتب لها يشرح لها طبيعة هواه. هواه العذري. كيف أنه كان دائماً هوى نبيلاً. وبريئا. وكيف أنه هو -حسن-لم تمر في ذهنه خاطرة سوء. كيف أنه عرضت له ألف فرصة وفرصة لأن يولغ في الحب الجسدي المادي الذي هي تعيشه الآن (هكذا) وكيف أنه ترفع. تسامى. «هل تذكرين يوم أن انكسرت نظارتي وكنت أسير في الظلمة في الليل فاصطدمت بي فجأة لأني كنت من غير نظارة- وصحت أنت في غضب: مش تبقوا تفتحوا شوية؟ ثم عرفتني فهتفت: اللّه، حسن» وكيف أنه صاح «سمية»، فقط. وكيف أنه شرح لها موقفه- شبه أعمى واعتذر- فأخذت بذراعه تحت إبطها وسارا معاً بهذا الشكل.. لكنه «حافظ على شرفها» لم يفعل أي شيء «يؤخذ عليه». أما أنا فلا أشك أن ذراعه كانت طيلة الوقت تنخسه كأنما هي حقيبة من الإبر وأن موقفه كان في الحقيقة يدعو للرثاء. لأن مخّه كان قد فسد من الرومانتيكية.

وغير ذلك وغير ذلك حكى لها وشرح لها ووبخها وعاتبها وشتمها في النهاية على ما أتصور، وأظن أنه قال لها شيئاً يشبه «عيب عليكي يا أمرأة» بالانجليزي والعربي أو شيئاً ما- كلّ ما أنا متأكد منه أن الخطاب وردت فيه كلمة «امرأة» مطبّقة على سُميَة -مِس سُمية أبو نادي..

وأرسل حسن «الشرح الذي لابد منه» بالبريد «المسجل» المسجّل، تصور!

الموقف الذي جاءني وصفُه بعد ذلك سمعته عندما جاءها الخطاب- كان صبحي في البيت معها- فقرأت. واصفر وجهها من الإهانة. لم تكن تتصور شيئا من هذا كله. كانت تعتقد أن علاقتها به هي علاقة الزميلة بالزميل في كل براءة دون أن يمر بذهنها دون أن يخطر على بالها دون أن تتصور حتّى

إمكان احتمال مجرّد تفكير في هذا النوع من الأشياء..بكت بالدموع، وصاحت، وهددت وتوّعدت بأنها سترى هذا الخطاب– هذه الإهانة–لأبيها المحترم لكي يعرض الأمر على العميد ولكي يطرد المذنب الشرير كاتب هذه الوقاحة من الكلية. يلقى به بعيداً إلى الرصيف!

ولكن صبحي هو الذي راح يهدئها ويخفف من ثورة الانفعال، أخذ الخطاب ومنعها من أن تريه لوالدها. قام بدور ملاك التضحية، غريم حسن إذن هو الذي أنقذه من التردي إلى الشارع والطرد إلى الرصيف. وهدأت سُميّة بعد ذلك قليلاً وهي تتعجب من أفكار هؤلاء الناس. يتصورون هذا. وهي إنما كانت تعاملهم معاملة اسبور. كزميلة لا أكثر!!

هكذا وصلني الموقف عن طريق ذلك العمود من أعمِدة الأخلاق الراسخة المكينة. على أي حال انفصمت تماماً علاقة حسن وسُميّة– زقزوق وظريفة– طبعاً، ماذا تتصور؟ وراح حسن يضع على رأسه بيريه زرقاء ولايحلق ذقنه فترة. ثم يعود فيمسحها. ويطلق شاربه. ثم يعود فيحبسه فوق فمه– الشعيرات المتناثرة المتشاكية نفسها تبدو بمظهر كئيب حزين. حسن قد يئس من العالم وراح يلعن كل البنات في العالم. ويلعن هذا الحب الوضيع الذي من الجسد. ويمشي بالشورت ورقبته تزداد طولاً في الهوا. والبيريه الكبيرة مائلة إلى جانب. تكبس رأسه. ويعلق في رقبته ربطة سوداء نحيلة طويلة تتأرجح باهتة كبندول أسود.

وفي تلك الفترة عرفت منه –قال لي يعني– إنّ سمية بنت لا خلاق لها. إنها كانت تعرف دستة من الشبان. إنها كانت تمشي معهم بلا تورع في كل مكان. إنها عابثة ومستهترة وشيء لاقيمة له على الإطلاق.

أما هما فقد كانا معاً. صبحي وسُمية الآن. وعندما تخرّج من الكلية كانت هي التي بحثت له عن وظيفة وهي التي كانت مهتمة بمصيره. وكانا

قد خطبا حتى- هكذا سارت الإشاعات- وأعلن أحدهما- لست أدرى من- استعداده لأن يتخلى عن ديانته في سبيل الآخر.

واستمر هذا الموقف حتى بداية العام الحالي. عندما انقلب كل شيء مرة ثانية رأساً على عقب.

❖

«بدوي

رأيتها اليوم صباحاً، مررت بيدي على شعرها، ولمست جبينها بشفتي، وأحسستُ ما بنفسي، واختلجت عيناها، وخفت أن أبكي.

لا تتركها أبداً يابدوي. وأرعها من أجلي. فهي تعسة، وأنا أعبدها».

منير

الجمعة ١٩٤٥/٥/٢

❖

الخميس ٢٤ سبتمبر ١٩٩٢

كانت سمية، كما لا أحتاج أن أقول، الآن، بعد كل هذه السنوات، تخرج مع زملاء الشلة فرادى أو مجتمعين سواء، دون حرج، ودون تردد، ذهبت مع سامي للسينما عدة مرات، وترددت مع بدوي على المجلس البريطاني في شارع شريف، وعلى معارض الرسم في الآتيليه والصداقة الفرنسية.

أحبها منير

الوجه الفاجع الحار للرومانتيكية نفسها، وجه ناعم، خادع، مبلل قليلاً بندى الدموع. وجه طفلي تقريباً ولكنه نهائي.

هل تخايلني من بعيد ساحات هذا الحب، من داخل الروح، وفي شوارع اسكندرية المسائية الهادئة، مظللة بأشجار قوية الحنان؟ ملعب الملك بأعمدته الرومانية الرخامية والخضرة تكسو ربوة الحديقة العامة، تمتد وترتفع قليلاً، مدورة هندسية الجمال، وخرساء لاتقول شيئاً.

سُمية مع منير، رشيقة وممسوحة القوام وفستانها منسدل منسرح على جسمها الرفيف، وجهها الطويل الأبيض الذي فيه مايوحي بشموس شمالية باردة، شعرها ناعم ساقط ليس فيه أدنى تموج، ونظارتها التي تعطيها مسحة ذهنية.

ومنير، هادئ، تدفق الروح المنبثقة مكتوم، محني الرأس قليلاً، يسير إلى جانبها، ليس في هذا العالم.

❖

٢٦ مايو ١٩٤٥

كم يبدو و كل شيء مجدباً. ماحلاً. ماحلاً إلى حد الموت. وليس في شيء. أن أكتب الآن هنا. حفنة أخرى من الكلمات. لماذا أكتب. ماقيمة هذا الذي أكتبه. أجرّ القلم على الورقة. ببطء. كل شيء لامعنى له. وفي يدي ثقل راكد.

حوالى الساعة الحادية عشرة كنت أطل من نافذة بيتنا (في شارع ابن

زهر، راغب باشا) ومن زاوية الشارع ظهر سامي، وبدوي. أول مرة يأتيني فيها سامي إلى البيت. وأول مرة منذ زمن طويل يأتيني بدوي. ولكنني شعرت بالحقيقة على الفور. شعرت بها كحدث يهبط إليّ. يقبض قلبي. ويجعلني أقف جامداً في النافذة. وقد ثقلت دمائي في جسمي.

مامعنى هذا الكلام؟ مامعنى هذا الهراء؟ ما الذي أنا أكتبه؟ كلمات تحكي حكاية. حكاية. حكاية أخرى.

لكني كنت أعرف. أنه مجنون آخر. لماذا أكتب عنه بهذا الشكل؟

«منير ضرب نفسه».

«هذا هو كل شيء» .

ألم أكن أنا أعرف؟ ألم تكن لمسته وهو يصافحني ويقبض على يدي منبئة؟ ألم تكن كل كلماته. وتصرفاته. ونظرته نفسها معبرة تهدف إلى شيء واحد؟ لكننا كلنا كنا جبناء. لم نستطع أن نفعل شيئاً. وما ضرورة أن نفعل شيئاً؟ العقم في كل شيء. الجمود. الإجداب.

❖

كان يبكي عندي، في غرفتي، حينما جاءني.

كان يعرف معنى هذا الاجداب في كل شيء. كان يعرف الوحشة التي في كل شيء. لأنها في الروح الرقيقة المقهورة. الروح المتعبة. وقد سقطت.

ألا نحكي الحكاية؟ ألا نصرخ هذه الوحشة في صرخات مكتوبة

لاتختلف في كثير عن صرخات القرود؟ حكاية واحدة. تلك الحكاية القديمة. حكاية لامعنى لها. لاضرورة لأن تُحكى.

لم أكن أدري ما الذي دفعني في عصر ذلك اليوم. منذ حوالى أسبوع واحد. أسبوع واحد فقط. لم أكن أدري ماذا أفعل وكان الأصيل جميلاً. والسماء في زرقتها العميقة الصافية. الزرقة الخالدة التي لاتقارن. النسيم رقيق وتلك الخدعة تملأ قلب كل إنسان. خدعة الجمال في السماء.

كانت صدفة أنني لم أجد حسن في بيته وأنني فكرت في أن أذهب إلى منير. نعم لم لا أذهب؟ سأذهب إلى منير. مجردصدفة. لو لم أكن قد خرجت في ذلك الأصيل. لكان ممكناً كل الإمكان أن يمر كل شيء بعيداً عني. وأن تمر تلك الروح المرهفة التي تألمت كثيراً، وأحبت كثيراً- دون أن تنالني منها تلك اللمسة. مجرد تلك اللمسة التي تملأ قلبي بالنار المثقلة، الراكدة كصرخة مدفونة في أحشاء التراب.

ذهبت إلى منير في محرم بيه. وكان قدّال هناك ثم نزل بعد لحظة. وجلست أنا في غرفة الصالون بفوتيّاتها الكبيرة المريحة وفيها مكتبه الصغير، وكانت مفاجأة لي أن يبتدئ منير يقرأ لي شعره. كان ذلك يخالف كل المخالفة ما أعرفه عنه: أنه كان دائماً خجولاً من شعره. لايحب أن يقرأه لأحد ولا أن يعطيه حتى لأحد. ولا أن يشار إليه.

ولكني شعرت بشكر بل بعرفان جميل. وبمعرفة جديدة لهذه الروح. الروح الغنية المجهودة. وكان في صوته عمق أخافني. كانت قراءته لشعره نوعاً من الموسيقى التي ترتمي في النفس كأضواء من المساء، وتغوص كثقل من الوحدة.

لماذا أحكي أنا؟ لماذا أتكلم؟ ماقيمة كل هذا الآن؟ مامعناه كله؟

نزلنا وكانت الساعة بعد التاسعة. والقمر يصبّ ضوءه. نفس القمر القديم. أبيض هناك في السماء ويصب ضوءه علينا. وقلت أنا إنه منذ زمن طويل أنا لم أمش في القمر بالليل. منذ زمن طويل. كان يعرف أنه هو لن يمشي الآن كثيراً في القمر بعد.

وابتدأنا نتكلم في برنامج الدراسة.

عبرنا الساحة أمام الملعب. وقطعنا شارع فؤاد. وكنت أتكلم (بكل بلاهة) عن عيوبه هو: لماذا يحب دائماً أن يساير الناس وأن ينكر رغباته الصغيرة. لماذا يحب دائماً أن يؤدي واجبه– مجرد واجبه– إزاء الناس لماذا لا يتركهم إلى الجحيم إذا كان يحس أنهم يستحقونها بل يحاول دائماً أن يقوم بواجبه الاجتماعي معهم؟ وكل هذا الهراء.

كان قد ترك معي قصيدته «التماثيل».

وجاءني بعد يومين. وقرأ لي شعره مرة أخرى. هذا العذاب الذي كان في صوته. كان يبكي. بالفعل كان يبكي. وكنت أنا جالساً، خامداً، لا أعرف ماذا أفعل ولا أفهم. لكنني عرفت ساعتها. كانت كل نبرة من نبرات صوته المرتجف ناطقة. كان يريد أن يستعيد مني كل ما كتب. ولكن بدا له في النهاية أن هذا مستحيل تقريباً. فترك كل شيء كما هو. كان دائماً هكذا. وديعاً مع الحياة. أدرك الآن أنه لم يكن قد خلق للحياة. كانت جديرة به. لكنها غبية. خذلته. تركته يناضل وحده وهو كان متعباً.

حاولت أنا أن أفعل أي شيء. لكنني كنت أنا أيضاً جباناً وخائفاً خفت

أن أزيد ألمه. خفت أن أكون قد أسأت فهمه، لم أكن أعرف إذا كان حدسي صحيحاً أم وهماً، كنت أعرف ماذا في رأسه. ولكن الشك أيضا كان يمزقني. كنت أخاف أيضاً أن أبدو أبله حقاً، إذا لم تكن الفكرة حقاً في ذهنه؟ وبالطبع كنت غبياً أعمى. كل شيء كان يشير إلى أنه قد نفض يديه من كل شيء.

عندما سألته لماذا يريد أن يجمع قصائده. أجاب:

- أصلك انت مش عارف ياعبيط. أصل it's over كل شيء انتهى يعني.

وخيّل إلى أن هذا فيه الوضوح الصاعق. وكنت أرتعش وأنا أجيبه: أبدا لم ينته أي شيء it's not over.

كنت آملاً أن أستطيع أن أهدئه. كنت آملاً أن أستطيع أن آخذ بيده في تلك التجربة الشريرة. ولكن في اللحظة التالية خيل إليّ أنني لم أفهمه، أن كلمته تلك غامضة، أن ألف معنى يمكن أن ينطبق عليها، أنه ربما لم يعن الحياة، بل كان يعني مجرد حبه. لم أكن قد تحققت حتى تلك اللحظة من أنهما شيء واحد. شيء واحد عميق. عميق حتى عنصر الوجود ذاته. تلك العاطفة التي أحالته، كله، جزءا منها، التي أحالت حياته كما يقول «حلماً قصيراً كئيباً» بكل العمق، والرقة والنبل التي في روحه. لم أكن قد تصورت الحب حتى اللحظة إلاّ شيئاً واحداً من بين أشياء أخرى في غمار الحياة. بضعاً من الحياة. هائل وعميق. لكنه لايصل إلى أن يكتسح كل الحياة، ويحيلها نغمة ذابلة من نغمه.

(بعد ذلك سوف يبدو الأمر مختلفاً).

اضطربت. كنت أرتعش وكان كل شيء مختلطاً. لم أستطع قط أن أفعل شيئاً.

وعندما قلت له باستسلام: أعتقد أنا أن كل دوري هو أن أوصلك إلى بيت بدوي وأن أرجع. هذا هو كل شيء. أن أمشي معك فترة وأرجع. قال بهدوء:

– أيوه. حقيقي.

كان كل شيء ككابوس. وكنت، كما يحدث في الكابوس، أحاول أن أمد يدي. أن أرجعه بشكل ما. لكنني لا أستطيع، كنت مشلولاً بإزائه. وأنا أراه يسير في طريقه تلك. لديّ كل الجنون أن أمّد إليه يدي. ولكن يدي كانت مشلولة إلى جانبي، كشيء غريب.

قلت له في الطريق:

– إننا الآن نرتكب ألف غلطة. نتخبط. ونعمل مالا نريد أن نعمله ونتعثر ونضطرب ونختلط.

ولم أكمل.

ولكن ذلك أيضا كان من الكابوس. لم أكن أملك شيئاً.

وأمام بيت بدوي قلت له أخيراً:

– أظن أنا لا أستطيع أن أعمل أى شيء إلا إني أرجع ؟

صمت.

كانت شفتاه ترتجفان. ووقف أمامي طويلاً. دون أن يتكلم. طويلاً والدقائق تمر واحدة بعد الأخرى ببطء. لم أكد أطيق تلك الدقائق الطويلة. تلك الوقفة الصامتة الجامدة. لم أكد أطيقها.

وعندما مد إليّ يده قال لي بهدوء: ستغفر كل شيء. قريبا.

أنا أغفر؟

يالها من صياغة، وكم فيها من حرارة وبراءة كاملة.

كنت ما أزال معتقداً أنني مخطئ في كل تصوراتي، أن ليس في ذهنه شيء من هذا القبيل.

قال لي إنه سيعود إليّ يوم الجمعة. وفي تلك الليلة نمت مضطرباً حوالي الساعة الثانية صباحاً.

في مساء الأربعاء صممت على أن أذهب لسامي بعد أن تركه منير، لكي يفعل سامي شيئاً ما. أو على الأقل يفعل شيئاً إيجابياً. يذهب إلى أهله في البيت يحذرهم. مرّ في ذهني حتى أن أغري سامي على أن يذهب للبيت، أن يغتصب الدرج الذي فيه المسدس. كنت أعرف أن لديه المسدس الصغير. ان يقلب المكتب إلى غرفة أخرى وأن يحدث ثورة ما. أن يحدث شيئاً صبيانياً أو جنونياً يوقف التيار المندفع في ذهن منير. ربما مرت الأزمة.

ولكن بدا لي كل شيء سخيفاً وأحمق: أن أذهب لسامي الساعة الثانية عشرة ليلاً لأحكي له عن تصورات لا أعرف كيف أقيم عليها الدليل. أن أغريه أن يقلب غرفة منير أو أن يكسر المكتب أو أن يفعل شيئاً ما. خيل لي أن هذا كله حماقة.

رجعت إلى البيت.

وجاءني في يوم الخميس لم يجدني. ورأيته بسرعة يوم الجمعة الظهر. ثم عاد يوم الجمعة مساء ليراني في البيت. بالأمس. مساء الأمس فقط.

قرأ لي آخر ما كتب. وكان يبكي. هنا. أمامي وهو جالس على الكنبة. أرى عينيه النديتين من الدموع. مازلت ألمس تلك النبرة المرتجفة في صوته. وتلك السخرية التي أراد أن ينهي بها كل قصيدة من قصائده. وهو يقرأها لي.

أرسل خطاباً إلى شفيق، كأنه ينهي طقوس التوديع. وعدنا قطعنا الطريق كله في صمت. صمت تام مطلق. وأنا أحس أنه يريد أن يقول لي شيئاً ما. ولا يستطيع. ولكنه فيما عدا ذلك كان عادياً. لم يكن محموماً كما كان في تلك الليلة الأخرى بل خيّل لي أنه هادئ. واعتقدت أن الأزمة مرت. أن كل شيء في مستوى طبيعي إلى حد ما.

ولكنه كان يريد أن يطيل خطواته معي. كنت أحس بذلك.

لامعنى هناك.

لم يقل لي قط ما كان يريد أن يقول. وعبّر الخطوة الأخيرة الباقية أمامه.

منير. منير. لماذا فعلت هذا؟ لماذا ارتكبت تلك الحماقة الأخيرة؟

عندما ضغط على يدي يومها لم أفهم شيئا. ورجعت بهدوء. أمشي ببطء، في القمر، وأفكر فيما ورائي من واجبات.

والآن يثب إلى كل شيء معناه الواضح. كل كلمة من كلماته كانت صارخة منبئة. وكنا كلنا عمياناً ولا حول لنا. أحقاً لم نكن نستطيع أن نفعل

شيئاً؟ أي شيء؟ على الإطلاق؟ على الإطلاق.؟

وأخيراً، ماذا؟

حفنة أخرى من الكلمات.

ما صلة هذه الكلمات بما تتكلم عنه؟ بما تحاول أن تتكلم عنه؟ لا صلة على الإطلاق. لاتعني شيئاً.

❖

٣٠ مايو ١٩٤٥

يجب أن أضحك، على الأقل، وأنا أحمل صليبي، تحت ثقل اللعنة، وإلاَّ لما استطعت قط أن أحمله.

يجب أن أسخر من هذه الحياة: تلك السخرية الكبيرة ذاتها، يجب أن أرقص، لكي أخفي الدموع الصارخة التي تتلوى في أعماقي كالأفاعي، وإلا لما استطعت قط أن أحيا. وأنا ما أزال أحيا...!

فلأرفع إذن إلى السماء. إلى الحياة. إلى النور والنسيم والسحب وجهاً باسماً. وعينين فيهما تألق..تألق ليس يدرى أحد أهو تألق ابتسامة. أم هو دموع.

يجب أن أسير، أن أضرب في هذا الطريق الطويل، أن أغمض عيني أحياناً، وأن أخدع نفسي قليلاً، وعلى أطراف شفتي أغنية، إذا استطعت،

ولأحاول، بأي شكل، أن أقضي حياتي، هذه التسلية القاسية الكبيرة، هذه السخرية.

لأحلم أحياناً.. ولأعبد الجمال أحياناً. ولأُضِئ روحي بما تركته لنا الأرواح الكبيرة، حتى أموت.

فلأغمض عينّي، على بقايا الدموع، ولأبتسم، في الظلمة.

❖

ياخبر..! كل هذه الصرخات..!

هذه اللوعات والاندلاعات التي لا ضابط لها- هل فيها أيضا، خداع محرق للنفس؟ وأكاذيب هي الصدق بذاته-، كيف أمكن أن تحدث؟ كيف أمكن أن تكتب؟

هل انقرض كاتب هذه اليوميات، ذلك الصبي الطفل الكهل، في السادسة عشرة من عمره أم في الستين؟ أم لعله رابض في داخلي، عميقاً، لايريد أن ينمو ولا أن ينضج، صبيٌّ شيخ رومانتيكي جداً، خائف ومستهتر بنفسه وبالعالم معا.

كل هذه العاطفية والسذاجة ولذعة لذة تعذيب الذات!

أظن أن بَعْث وحوشِ كتابةٍ قديمة- كأنها من زواحف ماقبل التاريخ- تأكيدٌ لها، حتى مع إنكارها. بل كأنه ترحيبٌ بها بعد طول هجوع.

❖

لماذا لم أكتب من قبل أن منير عندما جاء يزورني قبل أن يقتل نفسه بليلةٍ واحدة، ألحّ عليّ في أن نخرج، وتمشينا حتى محطة الرمل. كان النهار قد غاب، والسحاب على البحر في الميناء الشرقية، ينسكب في حمرة الشفق الاسكندراني، والنخيل السلطاني يتماوج سعَفَه في الهواء الرطب، بحفيفٍ كأنه موج سمائي لاقوام له، وكان منير صامتاً، كعادته، ولم أكن قط ممن يستطيعون أن يملأوا فجوات الصمت بالأحاديث «الصغيرة» كما يقال أو بأي دردشة مما يتيح لنا أن نجتاز فترات صعبة.

واقترح منير أن ندخل محل الفيّومي الشهير، وطلبنا «الهريسة» المشهورة، وكانت، مصداقاً لشهرتها، لذيذة حقاً. ورفض منير أن أدفع.

قلت في نفْسي: كأنما كان من واجبه أن يؤدي ثمن هذه المتعة العارضة، والأخيرة. وبالطبع كان ما قلت لنفسي- شأن كل شيء عندي في تلك الأيام- أكثر فخامة بكثير، وأقوى جلجلة، ولعله أدق نمنمة، مما كان حادثاً بالفعل. ألم يكن ذلك هو سِمة ما كان يملأ رأسي- وربما روحي- مما كنت أسميه «عذاباً» و«وحشة» و«سخرية» ؟

كان، ياما كان.

أم لعله مازال ؟

لم أدخل الفيومى من بعد ذلك، سنوات طويلة. لفتة لا معنى لها طبعا. كم في سلوكنا اليوميّ من لفتات لا معنى لها ؛ ولا معنى -حتى- أن نقول إنها لا معنى لها.

في اليوم التالي جاءني استدعاء النيابة لأدلي بأقوالي في «الحادثة» أنا

وبدوي، فقط.

مايو ١٩٤٥، مبنى النيابة العمومية مهيب، ونظيف جدا، ويهب عليه هواء الميناء الشرقية، الممر الواسع الخالي، ونحن ننتظر على الباب الضخم المقفل، والعسكرى في ملابسه السوداء، وطربوشه، أنيق، ومنضبط وفخور.

لم أكن قد دخلت، من قبل، مبنى مؤثّرا على هذا النحو.

كان وكيل النيابة شاباً أكبر منا بسنوات قليلة، ومتفهماً، ويريد كما هو واضح أن يغلق الملف الذي أمامه، بأقل قدر ممكن من الألم لعائلة منير ولأصدقائه، وأقل قدر ممكن من الضّجة.

لم يكن مألوفاً، ولا مفهوماً جدا، عندئذ أن ينتحر طالب في ليسانس الآداب قبل تخرّجه بأسابيع قليلة، ولم يكن وكيل النيابة حريصاً جداً على تعمق أسباب هذه النهاية الفاجعة، واكتفى بأننا أجبنا– على اتفاقٍ مسبق بيني وبين بدوي – أننا لانعرف سبباً لما حدث، وأن صديقنا كان دمث الخُلق، لاعداوة بينه وبين أحد، وأنه فقط كان يمر بأزمة نفسية لاتفسير لها، فيما نظن.

أفرد أحمد الصاوي محمد عموده بالأهرام: «ماقلّ ودلّ» لكلمةٍ عن هذا كله. كان مثل ذلك الأمر يستحق عندئذ عموداً في «الأهرام» من كاتب مرموق. لم يعد مثل هذا الآن مهما. مكانه خبر في صفحة الحوادث بالكثير.

عرفت بعد ذلك بسنوات طويلة أن صبحي – زميل سُميّة وحبيبها– كان قد مات. هل كان لصبحي أية علاقة بما فعل منير، حقا؟ ثم عرفت بعد ذلك أن سُميّة لم تتزوج قط.

يعني، ما أهمية ذلك؟)

فتح وكيل النيابة الملف الذي أمامه، على المكتب العريض اللامع المكسوّ بلوح سميك من الزجاج المتألق، في الغرفة الواسعة الهادئة، لم يكن على المكتب شيء آخر، وكان في الغرفة خزانة لها باب زجاجي، مقفلة، تبدو منها كتب القانون المجلّدة المرصوصة بنظام، والملفات موضوعة أحدها فوق الآخر بترتيب مريح.

وأخرج ورقة، عرفت خطّ منير على الفور، لكن الكتابة كانت مهوّشة قليلا متناثرة وغير مكتملة.

في الورقة اسم بدوي ثلاث مرات، واسمي عدة مرات وأمامه «أصيب بالجنون المطبق» وعلى الشمال، في أعلى الورقة، بخط كبير مفرّغ مجوّف ومعتنىً به «أنا هارب» وتحته خطّ مقوس تنبثق منه، وتعدو عليه، أشعة من خطوط منشعبة منفرجة في نصف دائرة غير كاملة، وبخط أقل عناية «من الشقاء المطبق» وعلى اليمين كلمات مضطربة غير واضحة تماماً، بالانجليزية: «كل واحد يجب أن يفكر فيما هو غير المعتاد» وفي وسط الورقة بالانجليزية أيضاً: «كان ينبغي أن أفكّر في أن ذلك غير مقبول، كان ينبغي أن أفكر.... » وتحتها إلى اليسار: «وعلى هذا النحو كان مستطيعاً أن يهرب..»

رد وكيل النيابة الورقة إلى الملف.

حفظتُ شكل الورقة، والكتابة، وأعدت تشكيلها، بخطّي، كما رأيتُها، تماما.

كلّ واحد يجب أن يفكّر فيما هو غير المُعتَاد.

ادوار الخرّاط

٧ مايو ١٩٩٢

بريق الرماد

تشاؤم

أيها البائس المعذب
لاتصبّ نقمتك على هذه الدنيا
فما هي إلاّ لوحة
خطّتها ريشة رّسام جائر
مزج فيها من ألوانه ماشاء له فنه
ولكنه ما كان يرسمها ليحدق فيها وحده
فقد خلق الأعين التي تتأمل.. وفي رهبة
تلك الألوان المتناقضة المتضاربة
ثم خلق الأنفس.. التي تشقى.
بذلك التأمل.

آلام وأحلام

أنا .. ما أنا؟..لاشيء
مخلوق تتجاذبه الأحزان وترتطم على صخر قلبه. الام واحلام
أحيا لأستمع إلى ألحان قلبي
حين يهدأ، أو يثور
كانت لي الطبيعة الشادية، أناجيها، فتناجيني
ولكن ما بالها اليوم
إنها ميتة، ميتة أشيعها كل يوم. بل كل ساعة.
إنني أفنى. أفنى فناء عنيفاً هادئاً
عنيفاً كاصطخاب الأمواج فوق الصخور
هادئاً كالنسائم الناعسة في ليالي الصيف الحالمة
لقد صهرت روحي على قالب الخيال والأحلام
فنى جسدي وبقيت روحاً. روحاً حالمة متأملة متألمة
روح تجري وراء الحب والجمال
شبح يجري وراء سراب
إن يدىَّ مثلجتان. ولكن النار تندلع في رأسي
إنني أقوم بدوري في مهزلة الحياة. ولكنه دور طويل ممل
لكن لا لا ها هي خاتمة الرواية تقترب

ما أروعها وما ألذها. كم أنت جميل أيها الموت
ويلي
إني أخالها تبعد كلما اقتربت
إنني لا أستطيع الحياة. ولكني لا أستطيع الموت
أيتها الأفكار السوداء التي تتدافع في رأسي
اهدئي. اهدئي قليلاً
واتركي مجالاً، لأحلامي...

١٩٤٢
(المندرة)

❖❖❖

خلود

حُبيَّ، نسائم صيف، قادتني إلى الشاطئ
وكانت الرياح تعصف، والموج يهدر
وبين زئير الأمواج، وأنين الرياح
تسلل صوت ساخر، صوت القدر:
«يالك من طفل. أتخطّ اسمها فوق الرمال
إنها صفحة لا تلبث أن تطوى»

«هيهات أيها القدر، هيهات، تقدم..
تقدم فلن تلق سوى جفنين مصفرّين
قد أذبلهما الأرق والسهاد
تقدم وأطبقهما، لو شئت، إلى الأبد
ولكن روحي، روحي الهائمة الشاردة
لن تستطيع أن تطويها قوة من قواك
ستظل روحي الهائمة مرفرفة عليه أينما حلّ

مرافقة لي..
إلى شواطئ الخلود..

❖❖❖

وداعا

أيتها الروح
لست أدري ما أنت، ما تكونين
لست أدري سوى أنه سيأتي اليوم
الذي تودعينني وترحلين.. بلا عودة
ولكن، فيم إسراعك أيتها الروح الحبيبة
لِمَ تَتركينني وحيداً في حياة
يَعِزّ فيها الأحبّاء
لِمَ تَتركينني أضرب في الأرض
في ليلٍ لا فجر له
لم تتركينني أصارع الموج
في محيط لاشواطئ له
لقد عشنا سوياً طويلاً. أيتها الروح
ورشفنا سوياً كؤوس الحياة حلوها ومرّها
والآن تفكرين في الرحيل
ولا تفكرين فيما سيكلفنا الفراق
سيكلفك وحدة واغتراباً أيتها الروح
ألك قلب أستَجْديه الحنان

أيتها الروح. إذا آن وقت الرحيل
وأشرفتِ على شواطئ النوم الأبدي
فلا تودعيني
لا لا تودعيني فلن أطيق وداعك
فتخيري لذهابك أمسيةً من أمسيات الصيف الحالمة
وتسللي في هدوء واهمسي لجفوني الناعسة
بسرّك الخالد. هل نلتقي؟
طمئني قلبي قبل رحيلك هدّئيني
طمئنيني، هدئيني واعزفي، لحن الخلود.

❖ ❖ ❖

جريمة الإنسان

امتدت الرمال سوداء ناعسة
بعد طول سهاد
ومن فوقها
سحبَ الليلُ أذيالَه في خفة الموت
مخافة أن يوقظها
وتلى الليلِ فجرٌ شاحب
مالتْ أشعته على بحيراتٍ مغشّاة
قد خلقتها الرمالُ دون أن تبتلعها
فقد شَربتْ منها حتى ارتوت
وحلّقتْ طيورُ الفجر على بحيرات من دماء
انعكس لونها القاني على وجه الفجر
فانجاب شحوبه
ووقفت الطبيعة.. خرساء
أمام جرم الإنسان.
وفي هذه البقعة
من الصحراء الجرداء
التي لم ترَ رمالُها ماءً ولا زرعا

نبتت زهورٌ ليست ككل الزهور
زهور حمراء روتها دماء
تنظر إليك. من ثناياها
عيون..
تقص عليك.. وبصمتها الرهيب
جريمة الإنسان..

❖ ❖ ❖

دموع

كلما مرت سحابةٌ قاتمة
على ذلك القلب الذي أضناه حلم بعيد
تحطم على صخر الحقيقة
نثرت عليه من مائها قطرات،
تتجمع لتنحدر إلى عينَي...
وما كانت هذه القطرات لتروي هاتيْن الزهرتين الذابلتين
فما كان الظمأ الذي أذبلهما
بل أذبلتهما دموع...

في الصباح الصامت
أتأمل الحشائش الخضراء
قد لمعتْ عليها حبات الندى...
فيتساءل قلبي:
أهذي دموع، نثرتها الطبيعة..
باكية لبكائي؟...
لا.. لا..
ما كانت الطبيعة لتحفل بآلام يعانيها بشر...

ولو أن روحي قد نسجتها ألحانُ نسائمها..
وحفيفُ أشجارها، وشدو طيورها..
وصقلها شعاعٌ، من أشعة قمرها الحنون..
ورغم كل ذلك، ما كانتَ الطبيعة لتحفل بي...
ولا أخال هذه الدموع، سوى دموع الفرح...
الفرح باستقبال فجر جديد..
إنها دموع شابة، تذرفها أعينٌ
لا تجفَ أبدا...

ولكن دموعي، دموع يتيمة، تذرفها عيناي،
وكأنها تذرف أنفاساً أخيرة...
وقد تقف في عينيّ دمعةٌ يائسة،
تقف بيني وبين العالم،
أنظر إلى الطبيعة من خلالها..
فلا أرى سوى صُوَرٍ، مادتها الأحلام...
صور متعلقٌ مصيرهاً،
بمصير تلك الدمعة الحائرة،
التي لا تدوم سوى لحظات...
إنني أبتهل إليها كل مرة أن تتّئد..
كما تتّئد سويعات الحنين، والعذاب، والألم...
لكنها تمر، كأطياف، تريثت لحظة، ثم مضت..
وسرعان ما تنحدر تلك الدمعة الخرساء
على الوجنة الشاحبة
التي انحدرت فوقها من قبل، مثيلاتُها..

ولكنها لم تعد تذوي تحت وطأتها،
فقد ذوت مرة....

❖ ❖ ❖

في السماء

تتالت عليه فلولُ النور، وفلول الظلام،
وهو ما زال يسير...
ناظراً حواليه، باحثاً، يائساً...
تتابعت أضواء النهار وأضواء الليل،
وهو مازال يسير...
وانتهى نهار.. وأقبل ليل
فمدّ يده يمسح جبينه،
وارتجفت يده، فقد لمست تجاعيد، لم تكن..
وهوى إلى جذع شجرة هالكة يسند إليها ظهره،
فالتقت عيناه بالأفق البعيد..
وبدت لعينيه الذاهلتين - وبعد أن ولى العمر-
حقيقة قاسية..
لقد بحث في الأرض، ولكن.. لم يبحث في السماء..!
ومن الأفق الشرقي، تسلل إلى السماء
شعاعٌ ورديٌّ شاحب..
ومع تسلل الشعاع، تسللت أنشودة أحد الديكة..
امتزجت بالشعاع الورديّ فزادته احمرارا..

ومن بعيد..
رنّت في أذنيه أصداءُ أغنيةٍ بعيدة،
بدت لعينيه الغائمتين في شعاعٍ أزرق،
امتزج بلون السماء..
وخلال الدمعة المُحْتَضَرة التي وقفت في عينيه..
امتزجت تلك الألوان،
وخرج منها شعاع شاحب، مالبث أن شملته حلكة يائسة..
واقترب جفناه الذابلان..
ولاحت في شفتيه المائتين أصداءُ ابتسامة..
ففى هذا الشعاع البنفسجي القاتم،
وجد نفسه...

❖❖❖

في الليل الأبديّ

إن نهاري قصير، ولكن ليلي أبديّ...
ليلٌ مرت أطرافه،
لم تعكس صفحة قلبي شعاعاً واحداً
لكوكبٍ من كواكبه...
أسدلتُ عينيّ، حتى لايروعني،
مايحوطني من ظلام...
وفجأة.. تسلل في هذا الليل البائس
شعاعٌ ، هَمَس في أذنيّ،
فأنصتُّ إلى لحن سماويٍ هامس...
ثم مسّ برفق، عيني الحالمة، فتفتحت على نور،
ارتوى منه قلبي الظامئ، قبل أن ترتشفه عيناي...
ومن الأفق البعيد، امتدت يدٌ خفيّة....
فدفعت، في صمتٍ، سحابة قاتمة،
أخذت تزحف في بطء رهيب،
وتعلقت بها عيناي، في خوف يائس...
وولّى الشعاع...

وتهشمت بقلبي زهورٌ لم تتفتح بعد...
وضعت يداً مرتجفة فوق قلبي، وغامت عيناي..
وتراقصت من حولي الأشعة السوداء،
بعد أن ولّى الشعاع وتركني..
تركني أذوي.. في سكونِ ليلٍ أبديّ...

❖❖❖

حطام

رأيت النجم الشاحب تخنقه أضواء الفجر، فبكيت..
ورأيت الزهرة الطفلة تطؤها أقدام السابلة، فبكيت..
بكيت، وبكيت،
ولم أجد من يبكي لي..

تنكبت طريق البشر، ورحت أبحث عنه..
فقدته في الظُلمة القاسية،
ولم أجد الضوء، يساعدني، فأبحث عنه...
فسرت أتلمس طريقي، بيديَّ المرتعشتين
فَعيناي أهلكهما طول الترقب...
ومن بعيد.. لاح لي شبحٌ عابر
أحسست برنين أقدامه
وشعرت بنور المصباح الذي بيده..
فتحسست طريقي إليه، ناديته،
لكنه أسرع الخُطى مبتعدا
ولم يلبِّ ندائي...
عدت أتعثر

في وحل الطريق، وحدي
وسرتْ في قلبي برودة اليأس
أشدّ قسوة من برودة الموت...
وأبت دموعي أن تنبثق
فتمنح قلبي قبساً من حرارتها
في هذا الليل، الثقيل، المائت...

ووجدت الطريق بلا نهاية
فأدرت ظهري
وعدت أبحث عن قيثارتي
التي تركتها في بدء الطريق
عدت إليها
فوجدت منها حطاماً
لكنه حطام ملتهب
ضممته إلى صدري المرتعد
ورحت أناجيه...
أناجيه فيُشجيني
بألحان الموت

❖ ❖ ❖

صلوات قلب

في أمسية من أمسيات الصيف الساكرة
كنا نسير جنباً إلى جنب..
تهمسينِ وتضحكين، وأنا أُصغي..
وعجبَ القمر لشبحين ساريين
تحوطهما ظلمات من سواد الليل..
وأنوارٌ من جمال الروح...
فأرسل شعاعين من أشعته الشفافة إلى قلبيهما..
تسلل شعاع إلى قلبكِ فوجد مكانه..
وتسلل الآخر إلى قلبيَ..
قلبي الذي لم تدع روحك فيه ركناً لم تحتله...
وجاهد الشعاع ليحتل مكَاناً، وأخيراً
حلّ محل آهةٍ بائسة وقفت عند شفتيّ..

إن الطريق ليست طريقا أبدية..
فتسرع دقات قلبي، إذ يحين فراقك،
وأسقط من سماء أحلامي
فأصطدم بأرض الحقيقة الوعرة، ويدمي قلبي...

أيتها الفراشة التي ما خُلقت لكفّ إنسان..
أيتها الروح التي لم تخلق لعينيْ بشر..
إنك لاتشعرين مني بغير خَفَقان قلبي،
ولا أَشعر منك بغيرِ أشعة جمالك...
إن أناتي وزفراتي الهائمة، في فضاءٍ لا نهائيّ،
لاتجد لها مستقراً ولا مهبطا...
وإنه لتختفي وراء شعري الشاب،
وخلف معالم محيّاي،
شيخوخةٌ، قاسية..
شيخوخةٌ عاجلتْ نفسي، قبل أوانها..
فنَاءَ بها كاهلٌ رطب ضعيف...

أيتها الفراشة التي ماخلقت لكفَ إنسان..
أيتها الروح التي ماخلقت لعينىْ بشر..
كلما مرت نسمة حالمة، فعبثت بخصلةٍ حائرة من شعرك،
أنصتي إلى همساتها، إنها شكواي...
واذا رأيت، في الصباح الباكر، الحشائش الخضراء،
تلمع فوقها قطرات الندى الباسمة،
فلا تطئيها بقدميك، فقد حمّلتها أدمعي...

واذا سمعت طائراً يشكو أو ينوح
فلا تطرديه في عنفٍ فما الذي يسمعكِ
سوى صدى لألحان قلبي...
واذا رأيت زهرة ذابلة
فتذكّري أنها كانت عطرة يوما ما، ولا تنكريها،
بل خذيها بين يديك الناعمتين،
واسكبي عليها من حنانك،
فما ذبلت لأنها اكتهلت،
بل ذبلت لأني بثثتها آلامي...
أيها الحلم الذي لايبرح مخيلتي..
أيها اللحن الذي لاينقشع عن قلبي..
رأيتك في الفجر الورديّ،
ورأيت الطبيعة ترنو إليك بعين العاشق،
فتخضب وجنتاك بذلك اللون القرمزيّ
الذي انساب له قلبي، من حنايا ضلوعي...
تركت تأمُّل الطبيعة لأتأملكِ..
لقد وجدت الطبيعة فيك..
والياسمين الأبيض وجدته في وجنتيك..
وأوراق الخريف الكستنائية لمحتها في عينيك..
وشقشقة طيور الفجر سمعتها في صوتك..
بل روح الطبيعة، وجدتها في روحك..
تلك الطبيعة التي سيّرت أناملك
فمسّت بها أوتار قلبى الكسير،
فعزفت لحناً، جرفني معه إلى معبدك،

حيث لا زلت أحترق...
في جمال النهار الذاهب كنت أضرب في الأرض..
عن يميني بحر، بجماله القاسي..
وعن يساري أنت بجمالك الحاني..
وأرسل البحرُ من نسائمه ما مر بقلبي
فعرف ما به..
ولكنه كان أجبن من أن ينقله إلى قلبك..
وكنت تترنمين بشفتيكِ..
وكنت أصغي بقلبي
فرحت أحلق، وأحلق،
في سماءٍ واسعة، ليس فيها سوانا، والنجوم...
وأغمضت عينيّ...
لقد خفْتُ أن يرتد بي النظر إلى العالم المُرّ..
فأهويَ من سمائي

أيتها الفراشة.. بل أيتها الروح..
إني ألمس في عينيك حلما..
فلتنعمي بالحلم، ولأنعم بأشواكه!...

أيتها الدمعة الهاطلة، في عيني..
أيتها النسمة الحائرة، في قلبي..
رأيتك، في المعبد الصامت، ترمقين تمثال العذراء..
ولكنى ما رأيت سوى هالة نورانية تحيط بشعرك..
هالة تضاءلت، في عيني، بجانبها هالةُ العذراء...

رأيتك.. ولكني ما رأيتك...
بل سَمعتك لحناً حانياً، َمن ألحان الأرغن الصادرة من كل مكان
لحنا حانياً، رائعاً.. قاسياً في روعته...
أخذ يسمو بهالته بعيدا عن عينيّ..
وراح بها.. بعيداً.. بعيداً...
إن المرئيات مظلمة أمامي
والنور يذهب، بعيداً، بعيداً...
فرفعت رأسي إلى وجه العذراء
ورأيت في عينيها دمعةً حزينة.. حنون....
وغامت عيناي، وبكيت..
ومسحت دمعي بظهر يدي، حتى لا يرى صلاتي.. إنسان..
إن قلبي ليناجيك ، كما يناجَى الله في علياء سمائه..
يناجيك في أنّاتٍ تعسة..
أنّات، صادرة من قيثارة محطمة
قد أضنتها آلامٌ يعجز عن حملها بشر..
فارحميني.. وأصغي إلى أناتها.. فهي قيثارة شقيَّ...
أنا بائس..أنا تعس.. ولكنني سعيد بسعادتك...
إن نسائم سعادتك لتمسّ بخفةٍ جفنيّ،
فتسمو بأدمعي...
وإن زهور سعادتك لتونع أمام عينيّ،
فلا تخشي عليها الذبول،
فإني ساهر عليها،
أروّيها.. في جوفِ الليل، بدموعي....

❖❖❖

هناك، حيث الفراغ
الممتد بلا نهاية

إلى الذين ولدوا ليموتوا
في غمار آلام مبهمة

في السماء
ذات الأشعة الزرقاء النائمة
والألحان الخافتة أبدا..
تتراكض قطعان السحاب
بيضاء ضاحكة، وسوداء مكتئبة
أمام قوة لاتراها
ولكنها تُحس دبيب أقدامها،
فتتراكض في ذعرٍ ساكن
لايهتك صمت الزرقة النائمة
ولا الألحان الخافتة أبدا..
مارّة في الليل ذي الهمهمات الموحشة
ذاهبةً بعيداً، إلى أن تعجز العين عن تبيّنها،
ثم تتلاشى، هناك،
حيث الفراغ الممتد بلا نهاية...
غير تاركة وراءها
سوى خيوطٍ من الدماء في صدر الفجر
تطمسها بلا وعي أضواءُ الصباح...
وتتسلل هبّاتٌ

من ذلك الجبروت الذي لا يُرَى
لافحةً في قسوة قلبَ طائر تعس
فيرسل تلك الأغنية الحزينة
التي في لون السماء
في آذان فجرٍ قاسٍ
يتركها تتسلل بلاغاية تحت لذعات أنداء الصباح الباردة..
وتنحدر مبتعدةً في لوعة
حتى تعجز الأذن عن تبيّنها..
ثم تتبدد في صمتٍ هناك
حيث الفراغ الممتدّ بلا نهاية..

وفي البحر المترامي بلا اتجاه،
يتراقص الموج مذعوراً أمام شيء ما
يرتعد متدافعاً بلا وعي
وقد انتثرت على رؤوسه أكاليلُ ناصعة
أشلاء السحاب الأبيض..
يحملها مزهوا إلى الشاطئ،
ملقياً بها عند أقدام الصخور الرابضة في الرمال...
وفوق تلك الصخور
يلوح الموكب المتحرك منذ الأزل،
المتقدم بلا غاية...
الصخور الشاخصة في صمت
تقذف إلى الأمواج برنّات السلاسل الثقيلة
المثبتة إلى أقدامهم...

وبأعين عميقة كالبحر، حزينةٍ كالليل،
يتقدمون إلى الأمام
ناظرين في استسلام أبديّ إلى ظلالهم الطويلة
التي تعكسها على أطراف الموج
نجوم بازغة من وراء ظهورهم،
ماضين إلى الأمام
تاركين فتات أقدامهم العارية على الصخور النهمة..
لايسمع الموج منهم سوى ماترتدده الصخور
آهاتٍ كالعواء،
وأناتٍ كالطنين..
والصخور رابضةٌ حيث هي،
نازعةٌ في جبروت، نحو الأفق...
وبعيون صيغت نظراتها من العذاب المبهم
يسائلون تلك الصَخَرات
كمن يعرفون أنها شهدت بدء الموكب
وستشهد نهايته..
والصخرات صامتة، كما هي..
ساكنة حيث هي..
صمتٌ ينطق بالسخرية
وسكونٌ يضجّ بالضحكات.
ويرتفع القمر واهناً في بطء
ويحس به السائرون
إذ يزيد ظلالهم حلكةً ووضوحاً
فيرفعون رؤوسهم

مجففين دموعاً محترقة
ولكنهم لايلبثون أن ينكسوها، في تَعَس،
إن أشعة القمر لا تبلغ نهاية الطريق
بل تعود في تكاسل
لامسة الصخر الساخر في صمت
حاملة دموعاً محطمة على أطرافه
وتنحدر في تهالك، متلاشية في الموج
الذي يبتعد عن الرمال المحرقة أبدا
حاملاً بين جنباته ما لم يحتمله الشاطئ..
وبأعينهم التي يتواثب في أعماقها الألم الأبديّ،
يتبعون رؤوس الأمواج، المثقلة بآلامهم
ولا تلبث أضواء النجوم أن تنحسر في وهن
عن أطراف الموج
متغيبة عن أعينهم
ولكن الأمواج تتدافع في الظلمة
إلى أن تتبدد بدموعهم
وتتلاشى في صمت
هناك..
حيث الفراغ الممتد بلا نهاية...

❖❖❖

أصداء

أصداء
تتنفس في موت
سجينةً في هذا القلب الذي يحترق
وقد طوى دخانه.. بين جدرانه–
فاختنق به..
لكن لهثاته التي أغفت عنها الحياة
لاتلبث أن تتعالى ضارعة
في دموعٍ وآهات
أخنقها بيدي
فلا أنت تحتملينها... ولا الحياة..

أحببتُك فأحببت كل شيء
وافتقدتّك فافتقدت كل شيء
النسائم الَطفلة التي طالما داعبت خيوطاً ثائرة
على جباهنا..
والحشائش اللينة التي طالما ركعت في دعاء
تحت أقدامنا..

وقطرات المطر الناعمة التي طالما تناثرت في عطف
على شفاهنا..
والظلمة.. التي طالما ضربتُ فيها، مغمضاً عينيّ،
حاسّاً بقلبي قربك...
والليل.. يوماً ما حبيبا إلى نفسي، والذي
طالما ردد هتافاتي:

«أيتها الحياة، ما أجملك!»..
كانت تزيّنك أيتها الحياة ورود
حسبتها لسعادتي ورود الفجر..
لكنها كانت ورود مساء
ما لبثت أن تخاطفتها أيدي الليل المسودّة
أمام عينَي..
وقفت أرقب بعينيّ احتراقي...
سمعت ضحكاتٍ لم تكن لي
فضحكت لكل شيءٍ..
وأسكرتني ابتسامات لم تكن لي
فابتسمت لكل شيء..
وأنصتُ إلى أغنيةٍ لم تكن لي
فطربتُ لكل شيء..
وهتفتُ في غمار تلك السعادة البائسة
«أيتها الحياة ما أجمَلك!»..
ثم أفقتُ من حلمي الذي لم يطل
وتلفتُّ كالأعمى
أريد التخلص من مرارةٍ على شفتيّ–

أشباح ابتسامات-
فلا أنت آويتها، ولا الحياة...

وأقبلت النسائم اللاذعة تتهالك ساخرة
على وجهي..
إنها تبحث عن دموعٍ لم تتجمد بعد،
فتحملها إلى أعماق من الليل بِتٌّ أرهبها...
وسِرت متعثراً، في الطريق التيِ بدأتها- لا أدري كيف..
همسات الريح ترعبني
وضربات الموج ترهبني..
أفرّ منها، لكن أصداءها
ما كانت لترحمني..
كل شيء يرقص حولي..
كل شيء يسخر مني..
فأنزوي عن كل شيء
فاراً من تلك اللحظات الطويلة المعذّبة..
أفرّ منها
فتتحول إلى ذكرياتٍ تطاردني
وتدفع بي إلى الليل
وفي الأعماق التي بِتٌّ أرهبها..
وتتسلل النسمات الساخرة
تثير الرمادَ الساكن الذي لاينتهي في نفسي
وينسحق قلبي
لكن لهثاته التي أغفت عنها الحياة

لاتلبث أن تتعالى ضارعة،
في دموع وآهاتٍ
أخنقها بيدي..
فلا أنتِ تحتملينها، ولا الحياة..

❖ ❖ ❖

نحو الغروب

إن الليل عميق يامعبودتي
لكن أعماقه ضاقت بآلامي
أحكي له في دمعةٍ أشجاني
وأرسل له في آذان الصمت أغنيتي
لكن أصداءها ترتدُ في ذُلٍّ إلى قلبي
فيطويها..
وفي هذا الليل العميق، القاسي
يبدو القمر يامحبوبتي، مضيئاً كوجهكِ
لكن قلبي ماعاد يعشقه
لم أعد أرى فيه سوى الظلال الميّتة
التي يَفْنَى بها ظلي
والتجاعيدَ المتحجرة
التي لا انفراج لها سوى خلال دموعي
تنفرج في أطلال ابتساماتٍ
أشد بلىً منها ابتساماتي
تحت تَلك الظلال العميقة

التي ينحتها القمر البالي
في جسد الليل
جلستُ يامعبودتي
أُدفيء أغانيَ
في بقايا شعاعٍ، أخمدتها الرياح
فقدَّمتُها لك في دفء قلبي
فلم يطرب لَها قلبكِ

عدت كسيراً
أنسج جناحي من بسمات ما وهبّتنيها الحياة:
وأحيك أطرافها بدموع
ترتعد في الظلمة
مستجدية حرارة قلبك
ورحت خلال الصمت
انسجها بشهقات
أخفيتها عن آذان الليل
وحلقت بها نحو الشروق أُحيّي الحياة
فما بسمت للقياي
ولابالت بتَحْنَاني
وباءت نفسي وِقد نالت من الفجر أشواكه
وفي بطءِ ملت مبتعداً عن الشروق
والأشواكُ تدَميني

إن الوان الغروب لتجتذبني في صمت
يامعبودتي

وإن النسمات الحبيبة لتحمل إليّ من أردية الغروب
ألحاناً
أحس فيها دخان القلوب
التي احترقت خلال أنغامها
وتحمل إليّ خلال الصمت أشعاراً لنفوسٍ
رأيت الشفق منعكساً على أجنحتها

إنني أتوق إلى الغروب يامعبودتي.
الغروب الذي لانهاية له
أتوق إليه منعكساً على حطام أجنحتي
فدعيني
دعيني يامعبودتي
فلن تمسح كفّاك عن جناحيّ الدماء
ولن تنزع أناملكِ الأشواكَ من صدري
دعيني يامحبوبتي وهذا الغروب
أداري الجرح في أعماق صمته

❖ ❖ ❖

الأوراق الذابلة

في قلب الليل
حين يفيضِ بالصمت كلُّ شيء
أظل أحدّق في السواد الكئيب
باحثاً في الظلمة عن ظلالك المتعبة
أيتها الأوراق الذابلة
أظل أحدق في ظلالك المتعبة
تطاردها في قسوةٍ أشعةُ القمر
منصتاً إلى وقع خطواتكِ التي تَطرّق إليها الإعياء
مصغياً إلى كلماتك
التي تتسلل في ضعف
إلى خفايا عميقةٍ من نفسي

لوحت إليّ، أيتها الأطفال المكتهلة يوما
بخضرَتك اللامعة تحت أنداء الصباح
فذهب النَدَى قبلَ أن أرتوي من لمعانك
وهمستْ إلى شابةً
على غصونكِ الشارعةِ أطرافها في الفضاء

فماتت همساتُك قبل أن تصل إلى أغوار نفسي
وتجيئين إليّ الآن
مزينةً جبينك بخيوط الموت
التي شحبت ألوانها
تحت لفح الشمس التي لاتغرب
فغمرت همساتك روحي
وتسربلت نفسي بباهت ابتساماتك
فجلستُ في قلب الليلَ
أحدق في ظلالك المتعبة
مصغياً إلى كلماتك

حَدِّثْتني أيتها الأحبّة الراحلة
عن الَغصون التي حملتك ضاحكة
ثم تطرق إليك المشيبُ فألَقتك عن أكتافها
حَدِّثْتِني عن تلك الرياح الجائرةَ
التي عصفت بأحبّاءٍ لك
ذهبتْ بهم، بلا عودة
حَدِّثْتِني عن تلك القلوب التي تفتتت ألحانا
تلاشت في الصمت أمام عينيك
وعن تلك العيون التي اكتحلت بالدمع ساعات
ثم أخفاها الترابُ عن ناظريكِ
حَدِّثْتِني عن الموت
وأنتَ تزحفين إلى غمار ظلامك
هاربةً من أشعة القمر

التي تعيد إلى فؤادك ذكرى تلك الأنداء
التي لمعت في جفونِك لحظات
ثم لمْ تمهلها رُسُلُ النهار فاحترقت
تاركةً جفونك يأكلها الجفاف

أنصتُّ إلى أحاديثكِ التي كنت ترسلينها
إليَّ وحدي
في السكون الغامر
وامتلأت عيناي وأنتِ تبثينني
أنا وحدي
أحلامكِ وذكرياتكِ
ثم أخذتَ تبتعدين
برؤوس قدَ علاها الغبار
وظهورٍ قد امتزجت فوقها، أمام عينيَّ
أضواءُ كل فجر
وظلالُ كل مساء
وفتحتُ شفتيَّ أناديكِ
فلم تخرج سوى حشرجة
حسبتُها حشرجتك
ومضيتِ في طريقك ترددين همسات الموتَى

وقفتُ في قلب الليل أنتظر عودتك
طال انتظاري وطالت غيبتك
أيتها الأخوات الطريدات

وهانا قد أرسلتُ روحي
تجدُ في أثرك
أفلا تشعرين بها؟
لن تميزي همساتها من بين همساتك
ولن تسمعي أناتها في غمار أناتك
فقد علمتها الصمت، أيتها الذاهبات بلا أوبة

أتعرفين صمت السماوات الزرقاء الممتدة بلا نهاية
بعد رحيل العاصفة؟
اتعرفين صمت هذا الطائر الذي بكى عمره بجوارك يوما
فما دريت لموته سببا؟
لقد علمتها اياه. ايتها الحبيبات الكئيبات
علمتها الصمت المنشق من أعماق الألم

❖❖❖

قابر الأحلام

في غفلة من قلبي
جمعتُ الحطام المتناثر في حناياه
ورحتُ به
بعيداً عن رنين الضحكات
وفي قطعةٍ من الليلِ
لم تمتد إليها أصداءُ الأغنيات المرحة
جثوت أحفر مثوىً لأحلامي..
ثم أهلتُ عليها تراباً
بللته بدموعي
وعدت مغمضاً عينّي
مخفياً عنِ عينيَّ قبر أحلامي..
وأسرعتُ نحو النهار
حاسباً أنّي سأخطر في الدنيا بلا أحلام..

ماهذه الرعدة الرقيقة التي تغمرني
كلما رَمَقْتُ تلك الذُبالاتِ المعلقة في السماء
داعيةً أرواحنا التعسة

وتلك القبورَ البيضاء المتناثرة فوق اللجة
داعية أجسادنا التي نُمْقتُها
إن هذه الرعدة تزداد عنفاً
كلما تذكرت أني أذرع الدنيا– بلا أحلام

إني أُحس بالرعدة تقتلني
وأنا أرمق الدماء المتساقطة من أظافري
وأنا أنبش في الأرض كالمجنون
باحثاً عن قبر أحلامي
زاحفاً على ركبتيّ في إعياء
متحسساً براحة يدي
التراب الجاف الذي بللتُه مرةً، بدموعي
وكلما أرسل القمر أشعته
لامعةً في سخرية
على قطرات دمي التي لوثها التراب
رفعت قبضتي المتقلصة في وجهه
لاعناً بَسَماته البلهاء
ثم أعود كسيراً
أحفر في الأرض كالمجنون
باحثاً عن قبر أحلامي
في كل مكان
باحثاً في كلِ مكانٍ..
لم يلوثه رنين بَعَثَته الضحكات
ولم تدنسه أصداء خلفتها الأغنيات المرحة

أنا الغريب

أنا الغريب
أذرع الأيام على نغمات موسيقى
حزينةٍ ضائعة
غير تاركٍ فيها آثاراً لأقدامي
أنا الغريب، فقدت طريقي قبل أن أجدها
وهأنا أذرع الأيام
وراء غريب ليرشدني
أهيم بين مجالس الموتَى
هامساً في آذانهم
بأغانيَّ التي لا معنى لها
أُرسلها في خفوت
خائفاً إيقاظهم
ثم أجلس في صمت
منصتاً إلى أناشيدهم التي يعبق بها السكون
يلقونها في سعادةٍ عميقة أبدية.

أنا الغريب
بذرت زهوري وعدت أجمعها
لأتوج بها جبين معبودتي
ورحت مع الفجر إلى معبدي
في قلبي ضحكة وعلى شفتيّ ابتسامة
فوجدت جبين معبودتي متوجاً بزهورٍ
لم تبلغ جمال زهوري
فعدت مع الليل
أضمّ إلى صدري زهوري
في عيني دمعة وفي قلبي آهة
وعدت أنثرها على مقابر السعداء
ثم خرجت إلى الدنيا
وقد نسيت ضحكاتي
بين مهامس الموتَى
نسيتها أو ذكرتها
حين سألني معبودي بعض ابتساماتي

أود لو استعدت ضحكاتي
ولثمت في سعادةٍ طائشة
تلك النسمات التّي تتهافَت في مرح
لامسةً جبينك
أود لو استعدتَ ابتساماتي
فأنثرها على زهرات البنفسج
ثم أُلقي بها لتذوي تحت قدميكِ

أود لو ملأتُ الآفاق من أجلك ضحكاً
وأغرقت الكون بابتساماتي
آه كم أودّ
ولكني غريبٌ يامعبودتي
أذرع الأيام على نغماتِ موسيقَى
حزينةٍ ضائعة
حزينةً كليالي الشتاء
ضائعة كأنغام قلبي
آه كم أودّ
ولكني غريبٌ يامعبودتي
فابكِ لي ساعةً
واصفَحي عن ألمي.

❖ ❖ ❖

البقايا

قصيرة ذاهبة
تلك اللحظات التي نختطفها
من بين براثن الزمن
نريد الهروب بها
لكننا نفقد الطريق بين أطلالٍ
تحوم فيها أشباحُ آلامنا
إننا ما زلنا نخبئ في أيدينا المتشابكة
ذكرياتٍ لتلك اللحظات
نرسلها كلما أضنانا الألم
في آذان أمواجٍ
شهدت في صمت الليل
بدء نضالنا

إن شفتيّ مازالتا متقلصتين
على تلك الكأس
التي تسقيني منها الحياة
أتجرعها في ابتسام

فقد لمحتُ فيها انعكاسات ابتساماتك
لكني أذوق منها
آلام ذلك النجم الأزرق
الذي هوى مرتعداً أمام أعيننا
وقد حطمتُها، تلك الكأس
التي تسقيني منها الحياة
حطمتُها
في قسوة
على شفتيَّ
حين غمرتِها بنظرات الرثاء
لا تنظري مشفقة
في عينيَّ التائهتين
لا تقبضي مشفقة
على يديَّ المرتعدتين
وابعدي شفتيك عن شفتيَّ
فما زالت بقايا الكأس عالقةً بها
تلك القطرات المريرة
التي اختلسناها
من بين أجفان الزمن

❖❖❖

أحلام العودة

إلى الحلم الذي امتزج بحياتي فأضحى هو حياتي
وأضحت حياتي حلماً

في ظلال الأشجار الطيبة التي لم تسلني يوماً عمّن أنتظر
انزويتُ في قلب الحياة مرتقباً
من عساه يمنحني الحياة
ثم لاح لي وجهك
بعد أن ألهبتْ ظهري نظراتُ النجوم
وجفّت مآقيّ على الزهور التي مددت بها يدي
فنثرتِها أمامَ عينّي في عرض الطريق
لقد ذهبتْ بأجملها الرياح
وسمعت البقايا تئنّ في قدميك
وعرفت الحياة
ورحت أجذّف في الفراغ الموحشِ
وحين عدت إليّ مع الفجر
وقد ملأت كَفيك زهوراً
وحشدت فَي عينيَك نظرات الرثاء
نكست رَأسي ولم أنَظر إليكَ
فقد وطأت زهوري
وتركت البَقايا تئنَ في قدميك

دفعت أقدامي في موكب الأحياء محتضراً
فحلمت أحلامِ السكارى ولمَّا تنتهى كأسي
وذقت ليل الموتى ولمَّا تنقضي لحظاتي
أدير وجهي كلما رأيتك جاثيةً
تروين الزهور–
إن زهوري قد ماتت
وما زالت تئنّ في قدميكِ

رأيت الظلال التي أعرفها تجدّ في أثرك.
صور من أحلام السكارى
وأطياف من ليالي الموتى
رحت أدفع أنفاس الظلال الزاحفة حيث وقفتِ
تحرقين على شفتيك الزهور
وتدفعين الرماد في شفتيّا
ثم تركتنِي أجدّف في الظهيرة وحدي
لكنك عدتِ إليّ
عدتِ إليّ
عدتَ إليّ ببسماتٍ قد رققها الحب
ونظراتٍ قد شفّفها الألم

أنين البقايا يهتصر من نفسي
مانسيتْ أغانيّ في ليالي الموتى
لكنَ بسماتك رققها الحب
ونظراتك شفّفها الألم

وعدت إليَّ.
أنفاسٍ وأحلام السكارى
تبعثُ الدفء في أحلامي

❖❖❖

أنفاس محترقة

أحلام الأمسيات التي اندثرت
وأحاديث الأقمار التي لم تولد بعد
تذوب في شفتيك
يامن تفوح النشوةَ الغامضة في أنفاسك

تخيفني أحاديثُ الأقمار التي لم تولد
لكني سأرشفها
فقد رشفتُ أحلامَ الأمسيات التي اندثرت
سأرشفها من بين شفتيكِ
وعلى شفتيَّ أحرقها
وسيسكرنا عبير البخور المحترق

في نشوةِ البخور المحترق
قبّلنا جبينَ السماء
وروينا الظمأ من زرقتها
وسلبنا القمر أغنية
وغرسنا النجوم في قلبينا

ثم صهرنا في لهيب أنفاسنا
أغلال أنفسنا
وأغرقنا في فيضٍ من القبلات
طَرقات الزمن
وها نحن ننساب في نشوة
سامين بأرواحنا المنهكة على اللحظات البائدة
ساحقين بين شفاهنا المضناة
صيحات الزمن

آه، يامن تموجُ في عينيك أطيافُ حلمٍ غامضٍ
لقد عصرت في شفتَي ورودَ فجرٍ خالدٍ
فلتنسحق أنفَاسنا
في خفق صدرينا
ولتفنَ شفتاي في شفتيك
يامن أطرق بين ذراعيكِ أبواب الأبد..

❖❖❖

أنغام اندثرت

كُلُّنا نغماتٌ في تلك الأغنيةِ الحزينة الغامضة
التي بدأت مع الفجر وستنتهي في المساء
كئيبة تلك النغمات التي صاغتها الدموع
ومرحةٌ تلك التي نسجتها الضحكات
كلها تمتزج لتغنّي في الترنيمة الغامضة
التي بدأتها أنّات أجدادنا
لقد بدأت وذهب الفجر
وها نحن ننتظر دبيبَ المساء
ولكن.. بعيداً عن أطياف هذا المساء
رددي أنغامك التي تصوغَينها من زرقة النجوم
يامن تنسجين من عطرِ الزهر أنفاسك

آه ما أجمل انغامك تتساب نشوىً كأنفاس الورود
حاملة في كلّ لحن ذكرى
ردديها كلما التهبت وَجْنَتا الفجر احمرارا..ردديها
واذكرى من أحرقتْهم في الفجر أنفاسُ المساء
فراحوا يهمسون في تَعَسٍ بأنغامك
باكين في ظلال الشموع أنغاماً قد اندثرت.

المَلْهاة

آلام ملايين من التعساء
قد اؤتمنت عليها أعماقٌ ميتة
وأمواج تمزق أسرارها، عند الأفق..
إنها تلفظها تحت لفح الشموس
وتسيل مع الأمطار في كل شتاء
لتمتزج بالوحل الذي تغوص فيه
أقدام المجدّين، في مرح
نحو النهاية..

سويعات من الليل تبتلع النهار
والأُكُفّ القابضة على الوحل
تتحسس في ضعفٍ طريقَها
والوحل يثقلها..

إن الستار تنزل لترتفع من جديد
فترتفع للتصفيق أكفٌ طليقة
ولكن هناك

في الأركان التي يفرّ منها النور
تنزوي أكفٌ جمَد عليها الوحل
تتنفض في صمت.. صمت يحترق ليفوح باللعنات
لعنات الموتى
والذين لم يروا النور بعد
إن الملْهاة ملهاة إلهِ تشجيه اللعنات

❖❖❖

الدموع الأخرى

وقفت أمام الشمس فشمل الكون ظلي
ولكنه تضاءل وتضاءل
حتى غاب تحت أقدامي
ووقفتْ في مآقيَّ دمعةٌ
خلتُها - لو سقطَتْ-
لأغرقتْ العالم الذي لاح في طياتها
ولكنها انحدرت فغابت حيث غابت ظلالي
ووقفتُ أحصي الظلال التي مزقتها
ورحت أحصي الدموع التي ضيعتها
إن الكون أوسع من أن تكسوه ظلالُ مجنون
وأعمق من أن تطهرّه عبرات ضائع..

لكن هناك ظلال أُخرَى
هناك الظلال التي تنوء الأرض بآثارها
فقد عمقَتها الرياحُ ولم تذهب بها
لقد أبلتها لمسات من الموت
وجمَعتها خيوطٌ من الوحشة

موتٌ ووحشةٌ
بعد انحدار الأثَاث التعسة إلى عوالم مجهولة

تلك الظلال، إنها تغمر العالم في سواد كئيب
تعمقها الرياحِ وتزيدها الدموع سوادا
الدموع الأُخرى - قطرات العرق التي تنحدر حمراء قاتمة
في التجاعيد المصفرّة.. في الوجوه التي أظلمتْها زرقةُ الألم..
ثم تسقط..قطرةً قطرةً، بطيئة، متداعية.
وتمتد حيث تسقط لتبتلعها الظلال
الظلال الممتدة لتغمر العالم
في سوادٍ كئيب

❖❖❖

الجفاف

على ضفاف النهر الذي تلهث الأجيال في خطواته
تنبت الأزهار التي لم تغرسها الأيادي
إن جذورها تختنق في أعماقه
لكنها تحيا
على مياه المآقي التي دثرتها الضفاف
لكن، بعيداً عن ضفاف النهر شبّت زهوري
فرحتُ أرويها بشفتيّ
وأدفئها بأنفاسي..

كم سهرت الليالي راكعاً
مستجدياً مَطَراً يرويني ويرويها
مستجدياً سيلاً يغرقني ويغرقها
فقد غاض الماء في شفتيّ
ودب البرد في أنفاسي
ولم تبقَ سوى أحلام لياليّ
أطرحها تحت أقدام الفجر
لأجمع من فوقها قطرات النَدى
ثم أنثرها على أوراقها..

خلتني باعثاً فيها الحياة بأنداء أحلامي..

نثرت أندائي
وبعثت الحمرة في أطراف شفتيها
لكنها أطرقتْ
وسرىٰ الجفافُ في أوراقها
فودعتُها بأغنية قد أثقلت قلبي
وما سمعتِ صداها..
فقد ذهبتُ وحيداً
ودثرتني الضفاف.

إن الامطار قد سقطت في كل مكان
فاستمتع الأحياء برحيق أزهارهم
إن المطر يسري في أفئدتهم
وهاهم يرقصون علي وقعِ أنغامه
وعلى أهدابهم يموج بريق حبّاته
لكن زهرتي قد أغلقت دونه أوراقها..
إن الامطار تسقط في كل مكان
لكنها لن تُحيي الشفاه التي حطمها الظَمأ
وعدت أطرح أحلامي في انتظار الفجر
طال انتظاري وهي مطرقة
وجاء الفجر بعد أن أطبقت جفنيها.

إن الامطار تسقط في كل مكان.

والفجر يسبح في قطراتها
ناثراً أنداءه على كل الشفاه لكن شفتيها قد شققّها الظمأ
شفتاها قد شققها الظمأ لكنها قبُلت أغنيتي
وأطبقت جفنيها على أنغامي.. جَفتْ وبقي عبيرُها
يحيا على مآقيَّ التي دثرتها الضفاف.

لست أدري أين ضاعت
إنها تخأف الأمطار التي يسبح الفجر في قطراتها
والأمطار تسقط في كل مكان
لن أراها فعيناي يملؤهما الثّرى
ولن تراها العيون التي يموج فيها بريق الفجر
قد يزول البريق حين تغزوها الظّلال
لكن الضباب مازال يملؤها.

لست أدري أين ضاعت لكن ظلالها تتنفس فيِ امتداد الأفق
إنها تتراقص أمام وجه الشمس فتسلبني ألوانَ إشراقها
ثم تمتد مع انقضاء النَهار وتسلبني أراجيزَ النجوم
لقد جفّت.. وبقي عبيرها يعتلي الأمواجَ نحو الشاطيء
مُترعاً باليأس
قلوبَ الذين ركعوا في انتظار الفجر
ليجمعوا لورودهم أنداء أحلامهم

❖❖❖

ليالي الشتاء

إنها تُبعث خافتةً كألحان مغتربٍ
ثم تتلاشى على كل النوافذ-
طَرْقات المطر الحزينة في ليالي الشتاء..
يخيفها فحيح الرياح التي لاكيان لها،
فتحثّ في ذعرٍ
طَرْقاتها التي تتلاشى على زجاج النوافذ
إنها تتلاشى
لكن أشباح الرياح قابعة بها
ناسجةً من أجسادها خيوط الصمت، قبل هبوبها..

إن السكينة لاتلبث أن تفارقها
فتثور: ملقية إلى الأمطارِ
بخيوط الصمت التي نَسجتّها..
ثم تسرع بين أشجار الكافور المتعالية في كبرياء
نازعة من أغصانها وريقاتٍ تلمع القطرات في أطرافها-
تلك الأهلة المكتهلة
سيفيض اللمعان من أطرافها

فتمتلئ بالظلام جفونٌ أثقلها الأرق

إنِ الرياح تروح وتجيء في كلِ موجةٍ
مُقبَلة في عنفٍ شفاه الصخور
ملقية عند أقدامها بأشلاء القوارب
التي طالما طارحتها الحبَّ في الليالي الصافيات
إن القوم قد هجعوا
تاركين قواربهم في حمى الصخرات
مغللين أطرافها بخيوطٍ من نسيج أمسيات الصيف..
لقد مزقتها الرياح
وألقت عند أقدام الصخور بأشلاء القوارب..
قد ضاعت في ثنايا الليل صرخاتها
وقَطَرات المطر قد جاءت لتنعاها
لكن القوم مازالوا نياماً
ومازالت الظلمة تكتنف النوافذ

طَرْقاته الحزينة تحتضر على كل النوافذ
والريح تضحك في أوج ثورتها!
لكنهم ما زالوا نياماً
أولئك الذين ركعوا يصلون لها..
إنهم ينكّسون رؤوسهم، وفي دعاء
يخبئون بالأكفَ وجوهم..
لن تطأ رؤوسَهم أقدامُ الرياح
ولن تلفح جباههم ألسنةُ المطر

إنها الرياح
تدفع الأجراس في عنف إلى الانطلاق،
والأجراس تنصت بعد تلاشي أصداء دقاتها
إلى طَرَقات المطر الحزينة على زجاج النافذة
إن قطرات المطر قد علقت بها
فتعود الرياح في عنف لتدفعها
لكن القوم مازالوا نياما
ورنين الأجراس يأكل الصدأ..
تُفتِّتُ الأمطارُ جدران القبور
تعصف الرياحُ بأنقاضها
دافعةً بعض أنفاسها في شفاه الموتَى
ملقية في مآقيهم بقطرات المطر..
إن الرياح تروم إيقاظهم
تروم إيقاظهم
لكنهم موتَى..

ما هذا الأنين العميق
تحمله في صمت الليل قطرات المطر؟
ما هذا النحيب الكئيب
تخفيه في قلب الليل صرخات الرياح،
إنها ترتفع في جهد منادية
في الظلمة التي لم تبددها
الأهلة المتناثرة من أشجار الكافور..
ليس الأنين أنين موتَى

ولا العواء عواؤهم
إن أصداءه تتحد في عويلٍ طويل،
ولا تخفيه صرخات الرياح
وهو يرتفع من قلوب النيام
محطما النوافذ التي تكتنفها الظلمة
ثم يفنَى في عواء الرياح التي تندفع
ناثرةً في كلّ مكان
حطامَ الزجاج الذي لم تخدشه طَرْقات المطر.

❖❖❖

الحب في معبدى

آهذا الحب يامعبودتي–
– دموعُ أحلامٍ تمرح في عينيك
وأنفاس لحظاتٍ تموت في شفتيك؟
آه يامعبودتي..
ما الحب قبلات تذرو الرياحُ صداها
ما الحب نظرات يغزو الظلامُ سناها
ما الحب لمسات يعلو التراب بهاها
لست أدرى ما الحب لكنني
أملكه في معبدي

في طرف الوادي
بعيداً عن طنين الأمنيات ونعيق الرغبات
شيدتُ معبدي
فملأْته لي قبل أن أطرقه نسماتٌ من الوادي.
طردتُها تلك النسمات التي تأتي من الوادي
محملةً بالزيف وأنفاسَ زهوره
طردتُها من جوّ معبدي، حين مَلأْته بالحب

ونزعت النقوشَ من جدرانه.

أمام المذبح أوقدت شمعتي. أقرأ في ضوئها صلوات حبي
مهما قصرت ظلالها دوني.. إن الشمعة تزداد اشتعالا
وانا أفنى في أعماق صلواتي
وأرتلَ أغانيّ في نورها المصفرّ
فيعلو الشحوب وجه صلاتي.
إنني أعبدكِ راكعاً في ظلها
لكني لستُ في معبدي وحدي
إن رسول الزمن مختبئ بها

الحب ملء جفوني، فائضاً من قلبي
إني أعيش عليه،
فقد طردتُ نسمات الوادي من جوّ صومعتي
الحب ملء جفوني فائضاً من قلبي
وأنا راكع في معبدي
أرتل صلواتي، فترسل دموعَ الحب في مقلتيك
آه كم أعبدها، تلك العيون التي تملؤها الأكاذيب المنغمة..

لم لا تحثين خطاك إلى معبدي
وتتنفسين الهوى في جوّ صومعتي؟
أتخافين أضواء الشموع؟
أم قد ملأت رئتيك بأنسام من الوادي؟
سترمقين لون الحبَ في معبدي.

وتُحسّين الحب ملءَ فؤادك
حتّي خطاك إلى معبدي
وارشفي الحبَّ حيث لا نسمات من الوادى
وانظري إليّ بالعيون التي تملؤها الأكاذيب المنغّمة
فما زلت أعبدها. ثم اهتفي في صمت صومعتي:
- ياحبيبي، الحب ملء جفوني.
كم هي جميلة تلك الأنغام. أنغام الأكاذيب التي أعبدها
أعبدها. فليس هناك سوى الحب يملأ معبدي

ماعدت أمقت رسول الزمن تدفع أنفاسُه ذبالةَ شمعتي
فتتراقص غير شاعرة
باللحظات التعسة التي تحترق في رقصاتها

ستخيّم الظلمة في قلب صومعتي
لكني ما عدتُ أمقت أنفاس الزمن
فستظل الشموع موقدةً في قلب معبودي
سيخيم الصمت على جدران صومعتي
ولكن ما أجمل الصمت الذي قد يقطعه يوما، مجيء معبودي
وهو يبكي ويغني:
- ياحبيبي، الحبُّ ملء جفوني..

❖❖❖

القافلة

في ظلال الوحدة التي لم تبددها
قطراتٌ فائضةٌ من أُكفَّ النجوم
قبعنا ننسج من أغاني الظلمة أرديةَ الرحيل
ضربنا في الطريق بأرديةٍ ممزقة
نسيج جفون أثقلها السراب

لا شعاع على الطريق رغم أنّا لا نرى
لاحنوّ من السكون رغم أنّا لا نعِي
قد اختفتِ في ثنايا الضباب عيونٌ
مصابيحَ حسبناها
وباتت أيامنا في آذان الليل
أقاصيصَ رويناها

لاهثي الأنفاس نَقْفو شعاعاً للقمر
مطبقي الأعين نلعق أطراف الظلال
متناسين أنفاس أحباء لنا
في دخان اللفافات المحترقة
مستعيضين عن قبلاتهم

بلمسات الكؤوس القديمة
تنفسنا دخان لفافاتٍ محترقة
وتركنا الأسرار في بقاياها
وتجرعنا قبلات الكؤوس القديمة
وتركنا الآلام في قطرات، عالقةٍ بجدرانها
مازالت في بقايا اللفافات تمرح أطياف الليالي السود
وما زالت في فراغ الكؤوس القديمة ترقص قبلات السراب
سننثرها تلك البقايا وحطام الكؤوس حيث نسير
فالدخان يترُع الكأس
وقد نضل الطريق

مازلنا نضرب في الضباب
فانين في الامتدادات التي لاتنتهي
تاركين على طول الطريق أرديةً ممزقةً
وبقايا لفافات خامدة في فراغ الكؤوس
مازلنا نضرب في الضباب
تنهش منا الجسد أشباحٌ من ليالينا
وتمزق منا الجفون دعواتُ السراب
لكنا سننسى أنْ كانت لنا يوما
أرديةٌ من أغاني الظلمة
تركناها ممزقةً علي طول الطريق
سننسى البقايا والقطرات التي علقت بجدران الكؤوس
ونمضي
باسمين في ألمٍ لوخزات السراب

محتضنين في خوفٍ أشباحاً من ليالينا
ستنساها ونمضي
حين تثقل أرواحنا المضناة لمساتُ السكون.

❖❖❖

الحنين

من بلادٍ غريبة
يجلب الطير أغانّي ما سمعناها
لكنها تشجينا – الأغاني الغريبة عن آذاننا
ومن بلادٍ نائية
تحمل النسماتُ عبيرَ زهورٍ ما رأيناها
لكنه يسكرنا – عبير الزهورِ الغريبة عن أراضينا
يسكرنا العبير، وتملؤنا الأغاني بالحنين
لكن ما أقسى الحنين إلى أغانٍ سمعناها
وعبير زهور شبّت في أراضينا

الموج يطوي البحر تلقاه الرمال
النور يطوي الظلمة تلقاه العيون
وأنا غارق في أصداء أغنية يُضنيها الحنين
والريح تطوى قفاراً لا انتهاء لها

بعتُ القمرَ والأنجمَ نومي
واستحلتُ في سهدي شعاعاً
أقتفي في الليل همساتِ لحبي
باحثاً في الصمت عن صوتِ حبيبي
استحلتُ في سهدي شعاعا
وسبقتني إلى جفنه قبلاتُ النعاس.
فتوسدت شفتيه في تحنان
ناثراً لوني الفضيّ في خصلات شعره
وعدت
بعد أن بعت القمرَ والأنجمَ نومي
طارقٌ
في الليل يضنيه الحنين

في صخب النهار أغرقت حواسي
صممتُ أذني عن همساتِ تعذبني
والهمس في نفسي
وأغلقت عيني عن صور تطاردني
والصور في رأسي
في صخب النهار أغرقت حواسي
تاركاً في هدوء الليل نفسي
ترسل على شاطئ
الحنين أغاني تردِدها
قد يطول الليل، وقد تخفت أغانيها

هاهي تنصت في قلقٍ إلى دقاتِ ساعة
وهي تحصي على الشاطئ المهجَور حبات الرمال

❖❖❖

الشاعر

في شعاع مصباح
تلمع عبرات في عيون القدر قد جمدت
وتتنفس همسات في آذانه ماتت-
عبرات التعساء وهمسات البائسين
في شعاع مصباح
والمصباح مِلك لشاعرٍ
يدفع بذبالتهِ الصفراء الظلال
التي تترنح في قلوب ليالٍ تروم الفجر يقبرها

أقاصيص كهلٍ لأحفاده
ونجوى حبيب لمعشوقته
وورود قديمة طواها العدم
تعود لتونع في بستان شاعر
الأقاصيص لياليه وأحلامها
والنجوى عزاء لآلامها

أسفار الضاربين بين مجاهل
وضحكات الأبطال في ساعات مجد
زاخرة بها كتبٌ
تختفي فيها بين رنين أقدامهم وحفيف سيوفهم
نبضاتٌ في قلوبهم
لكن أنَّاتهم تتنفس في أبيات شاعر
يبكي لياليهم في أحضان معبود
وتتساقط من مآقيه
أشباح لياليه التي يهجرها على شفاهِ معبوده

على طُرُقاتهم التي يصقلها المطر
تلمع بسمات من شعاعٍ تصارعه الرياح
زيت المصباح بين شفاهِ معبود
مترع الجفنين تواق إلىَ شمسه
والهمس بين شفاه شاعرٍ
ممزق الأحلام تواق إلى دمعه -
يبذل اللحظات - التي تنساه- في عبرات
ويرصع أوراق الخريف المرح من أبياته

أصداء أناتهم لاتنتهي
بعد انتهاء لحظات المرح
أموات يمرون في الليل فرادى
في ظلال مصباحه..
إنه يضن على أحلامه بضحكاتٍ لهم

ويحيك من آلامهم وتراً لقيثاره
ثم يرثي بلحنٍ أنينهم أحلاماً ممزقة
كانت تلمّ شتاتَها
ألوان فجر وعبير ذكرى..

❖ ❖ ❖

بريق الرماد

الأقصوصة التي لاتنتهي
نتلوها – فصلاً بعد فصل – بين فجرٍ ومساء.
الموجة الأولى على أول حبةٍ تحتضن من حبات الرمال
في جفون العيون زائفة البريق
الأقصوصة التي لاتنتهي
إنها لن تتم فصولا قبل الفجر ولابعد المساء
خدعةُ الأبد
على شاطئ العيون زائفة البريق

نفوس ضائعة
تحيا على جمالِ العيون زائفةِ البريق
إنها ضائعة في خدعة الأبد
وما العيون بأقل زيفاً
والأشلاء الممزقة تحت الأردية الجميلة
جميلة تلك الأردية المنسقة
ولم تكن أقل منها جمالا
أكفانُ موتَى مئات السنين

الأشلاء الممزقة
تضحك في جنونٍ لضربات الموجة الأولى
في حرارة الأنفاس المتَقدة
تحت ثقل الشفاه المسمَمة اللمسات
وما زالت نفس الموجة تذهب وتجيء
تتلو فصولها على أول حبةٍ من حبات الرمال
إنه جميل ككل زائف
ذلك البريق الذي أوقدته نار الفجر ولم تطفئه ظلالُ السماء

وما زالت الأشلاء الممزقة
ترقص بأرديتها الجميلة المُنسّقة
ترقص في جنون
على وقع ضربات الموجة الأولى
ضحكاتها المعتوهة تزداد خفوتاً
كلما بدأ فصلٌ جديد في الأقصوصة التي لا تنتهي
إنها تتلوى خافتة في الأفواه المجوفة
وفي البيوت الخرِبة تتضخم الأصداء

إنها تحيا على جمالٍ العيون زائفة البريق
تلفظ أحلاماً في زرقة الكدمات
ضحكاتها المعتوهة تسترسل في نار أنفاسٍ متقدة
إنها تبحث في جنون ذاهلٍ عن شفاهٍ مسمّمة اللمسات
تلك الأشلاء الممزقة

تخنقها صيحاتها المكبوتة
في الليالي المليئة بالرماد

❖❖❖

بعد الفجر

جفونك أوراق ورد داعبها النعاس
فعطّرت حلمي
وقلبك أغنيةٌ من شفاه الفجر سالت
فامتزجت بأغنيتي
بسماتك في جفني لا يسلبها الكرى
ولوهجر الفجر ليلي
وهمساتك – لاغيرها – في قلبي لحن
ولو كان الأبد لنا
فما الحياة من شفتيك سوى حلمٍ
حبيبٍ يضنيني

بين شفتيّ طويت أحزان لياليّ
وأفراح فجري وسدّتها شفتيكِ
ثم رأيتها – أحزانَ لياليّ
لافحة الأنفاس في أعماق عينيكِ
إطرحيها – ولو دثرتها الدموع
والثمي ضحكاتي

ودَعي لأغنيتي وداعٍ الفجر
فلن تخدعني عيونُ النهار ولو بسمت ملياً
ولن يضنينني وداع الفجر ولو راح الشعاع بحلمي
فما الزمان بين ذراعيكِ سوى لحنٍ

طروبٍ ويبكيني.

❖❖❖

التماثيل

زجاجيةٌ، تلك التماثيل القائمة
حيث تثقل وطأةَ الفراغ الكئيب
على العيون التي أمّحت آفاقها..
نُقحم هاماتها في قلب السماء
فتداعب أقدامها رءوس السحاب
وتملأُ أعينَها الزرقةُ الناعمة
ننحتها، تلك التماثيل من بلّور أنفسنا
ثم نودّ لو نحطمها!..

جامدةٌ، تلك التماثيل،
لا فراغ فيها نلتمس فيه الدفء في قرّ الشتاء
شفّافة لا تقينا لظى الصيف
تماثيل لا ظلال لها..
إنها زجاجية، تلك التماثيل،
نودّ لو نحطمها!..

صنعناها كآلهة حتى بليت أيادينا
وفي أملٍ صقلناها حتى بليت مآقينا
وفي خوفٍ رفعناها على أكتافنا
مقحمين هاماتها في قلب السماء..
هاهي! هاهي!
إنها لم تذهب بعيداً عن أناملنا!
إنّا نُقبّلها ونصفعها
نحتضنها ونصفعها
نحتضنها ونركلها
تلك التماثيل التي لا أنفاس لها،
إنّا نحطمها!..

- مهلاً حتى تنطوي لهثاتكم،
صدوركم تعلو وتهبط
مترنّحة في نثير الشظايا..
جففوا قطرات العرق المتجمدة على أهدابكم
فقد تنحدر، وقد تبث الحياة في أطرافها..
العقوا خيوط الدماء التي تسيل من أفواهكم،
إنها تتساقط على الحطام الباهت
فتصبغه بلون اللهيب..
- إن دماءنا تصبغها بلون اللهيب
لكن لمساتها تبعث القشعريرة في أجسادنا
بقايا التماثيل التي حطمناها،
وودنا لو نحطمها..

- مهلا، فلا خمر هنا،
قد شربتم من دماكم فارتويتم،
قد سكرتم فأفيقوا وأنصتوا-
أنصتوا إلى رنّات الكؤوس في مجالس الآلهة..
- قد سكرنا وأفقنا ذاهلين
كم تخيفنا عيون التماثيل التي حطمناها
وددنا لو نحطمها..

- قد شربتم فأفيقوا،
لاتبكوا الرماد الخامد،
دموعكم أنقي من حطام التماثيل التي لا معنى لها..
- قد سكرنا وأفقنا،
إننا لانبكي، وما كان البكاء لنا
نحن من في بدئنا كانت نهايتنا..

❖❖❖

أغنية ليالي الأسى

أترعتها البقايا وأصداء لحن
نفس حبيب وأحلام طفل
لكن البقايا بقايا- وإن طال بقاها
والأصداء أصداء
بقلب معبود ليالي الأسى

أسكرها أريجُ زهور ربيع
تعيش في حلمٍ مياه الخريف
نفس حبيب وأحلام طفل
قيثار الخريف بلحن الربيع
وليس بعيداً نحيب الشتاء
أنّات الربيع بقلب الشتاء
يامعبودةً في ليالي الأسى

السحب في عينيك والمطر في عينيا
الورد في شفتيك والعَطر في شفتيا
قبّليني واسلبي العطرَ من كأس شفتيا

وسيروي مطر عينَي وردَ شفتيك
حين أرثي الغصون في جبين أفراحي
على قيثار أحزاني في فجرعينيك
فقد ضاع فجري بليلٍ كئيب
وهأنا أحيا ليالي الزمن

ضُمّي قلبي المحموم - ضُمّيه بلا رفق
ولا تخافي حطاماً يشدو بلا خفق
واشعليه
لهيب الموت بقلب الحياة
فقلب الحياة صريع الأسى.
شراع الزورق الأسوان يمضّه القلق
ولا لحنا لملاّح يصرع وطأة الليل
سأصرعه بقبلاتٍ دانيةٍ بشفتيك
وحين الليل يضنيني ضُمّيني إلى صدرك
شراع الزورق الأسوان
يسري بلا فجر..

❖❖❖

لحن أسطورة

الطريق القَفْر الذي كانت
أحاديث الرياح تزيد وحشةَ صمتِه
بخطواتٍ سارية
تنثر الأزهار على جانبيه بأحضان الشتاء
تخللت وحدته
وبددت وحشته
بأغنية على شفتيها
... غرست الأزهار في قفر الطريق
وما عاد قفراً بعد وقع خطاها

غرستها في قفر الطريق ولحن أغنية
ثم ملت ريها
نبذتها وراحت بأحضان صيف
تروي الكآبة في أعماق عينيها..

الطريق القفر مأوى لحبيبٍ راح يشدو
والصمت في قلب الرياح ترديد لأغنية

أمن بقايا الشتاء الطويل أم من نسيم الصيف حلَّ
سحابةً مرت بعينيك؟

أمن شذى زهريَ الحزين أم شذى زهرٍ بذكرى
كآبةٍ مرت بقلبك ؟
ليت شفتي بلحني ترشف السحب من مآقيك
وتنثرها على عينيَّ
لكنها غنَّت ففاضت يأساً من أغانيك
وهشمت لحني
ليت عينيَّ بدمعي تمحو الكآبة من لياليك؛
تضفيها على ليلي
لكنها امتلأت ففاضت تعسا من تجافيك
وأتعست قلبي

شفتاه أغرقها الدمع
وعيناه اللحن أحرقها
حبِّي ضمَّه قبر بزادٍ من الذكرى
ولهبات أنفاسك
تركت القبر أطلالا
وميِّتاً قد نسي الدمع
ويبكي جور أنفاسك

ما الدمع دمع هذا الذى يذرفه
بل دخان محترق قد مس عينيه
فالزهر يحترق ولحن أغنية فى أطلال قبر
على الطريق القفر الذى عادت
أحاديث الرياح تزيده وحشة..

بعد انقضاء النهار

بعد انقضاء النهار الطويل
حين يمسي صياح الديكة في عداد الذكرى
ويرقد الكون في أحضان قبرٍ كئيب.
أرسلي فيه البصر قبل امتداد الظلال السود
حين يسري شعاع القمر متحسساً جدرانه..
ستعرفين الوحدة
وتحسين مدى وحشتي

بعد انقضاء النهار الطويل
حين تمسي تحية الصباح في ثنايا العدم
وتمتد ظلال المصابيح شرائطَ في وشاح ليلٍ حزين
أرهفي السمع إلى آخر طرقةٍ من طرقات سائل
تتلاشى في السكون وآخر صدى من أصداء خطواته..
ستعرفين الوحدة
وتحسين مدى وحشتي

بعد انقضاء النهار الطويل

حين يمسي الفَجْر حدثاً في طوايا الماضي
ويركن الطير إلى أجفان ليلٍ دافيء
اجلسي في صمتٍ إلى نافذتك
وانصتي إلى همس الرياح في آذان زهرٍ نائم..
ستعرفين الوحدة
وتحسين مدى وحشتي

❖ ❖ ❖

الرباعيات

- إلى حبيبةٍ ربطتني بالحياة في حلمٍ قصير كئيب
- وصديق آواني بقيةَ ليلي

(١) لمعات السراب

الكل يُنسى ويمضي
الحلم يمضي، والليل يُنسى
لكنها تمضي ولا تُنسى
شهقات طفلٍ بحلم كئيب

في ساعاتِ النهار الأولى
ساءلَ الشمس عن عمر الظلال وعن ظلٍ نساه بها
مودعا في الظهيرة صورها، ذكريات ليال
قد أثلجتها ارتعاشاتُ النجوم

قبل مجيء الليل قبّل أُمّاً أوقدت مصباحه
وبأوراق زهر جففت نظراتِ علقت بجفنيه.

ودّعَ التحنان دفئا في أحضانها
تاركاً شعراته البيضاء في أعماق عينيها...

هارباً في النور من أشباحِ ليله
خائفاً في الليل أشباحا بحلمه
صارخاً في الحلمِ من شبح الغداة
وفي الغداة غريبُ راحلاً وحده.

شجرة على الطريق قد آوته ليلا
وأخفته لحظات عن ضوء النهار
شعاع القمر سجين في أغصانها
جذورها السوداء تمتد في صدره

أضواء المصابيح تحتضر في عينيه
قطرات المطر تجف في شفتيه
وبقايا الزهر ذاويةً بشعره
وعلى الطريق آثار تداعبها الرياح

بين عروش خاوية وراء السحاب
رددت ضحكاته
وعلى سفح جبلٍ يحتضن السماء
تفتّتتْ أنّاته

قمم التلال علاها الطين لم تعد مأوىً

وقطعان السحاب تمزقت فأمطرت ريحا
الطين جف على التلال،
والريح تذرو تراباً

قد عاد يحبو بزفرات في قاع نهر جامد
متعثراً في دورة الساعات
ظلمة الأقمار مفترشةٌ جفنيه،
وبرد الشموس ينخر في عظامه

إنه يسري ثاوياً في ظل قاربٍ تدير دفته
ذراع ملاّح لفظتها الرمال
في ظلمة الأعماق، أطفات شفاه الموج
مصابيح َلغرقَى ، دثَّرها الزبَد

مترنما على شفاه الرياح يلوح ظل القارب
ذاهلاً عن نار عينيها، والموت في قبلاتها
على دفته آثار شفتيه،
وبقايا عيونٍ تختلج في قاعه

على سطح الماء قد رَبَتَتْ أَكُفُّ الصمت
والسكونُ حَالَ السطحَ قاعا،
والقارب المتهاوي يقوده جسد
قد غفا يرسم الأحلام في جدران معبد

الكل يمضي ويُنسى
الحلم يمضي والليل يَنسى
لكنها تمضي ولا تنسى
أحلام طفلٍ في معبدٍ مشئوم

(٢) المعبدالمشئوم

الكل يمضي ويُنسى
الحلم يمضي والليل يَنسى
لكنها تمضي ولاتنسى
صلواتُ الحب بمعبدٍ مشئوم

طرقنا الباب وسألنا،
بصوتٍ فيه صوتانا وصوتٌ ثالث:
ما من مضيفٍ هنا يأوي حبيبين،
الحب يأوينا، والموت يرعانا، في المعبد المشئوم

محاجر عشّاق أفرغها البلَى
وملأتها بياضاً، بقايا الشموع
وأغانيهم التي خنقتها السيول
تحتضر ظامئةً في المعبد المشئوم..

جميلة صلوات طفل يراوده النعاس
وأجمل منها أغاني الحب.

لكنها رهيبة تبعث الرعدة في أجسادنا
أصداؤها التعسة بمعبد مشئوم

«اصرعوا الحب في احمرار الفجر
وفي احمرار الغروب اصرعوا أنفسكم
اصرعوها واطلقوا الضحكاتِ من أغلالها
ولا تبيتوا ليلةً في المعبد المشئوم»

بتنا ليلةً بل بتنا ليالىَ
دعواتنا صلواتٌ والهةٌ كعيوننا
وصلواتنا قبلاتٌ ناصعة كقلبينا
لكنها صمتت، والليل لاينبض في المعبد المشئوم

طاردنا النعاس، وأضواء وهمسات تلمح في الحطام
أضواء جامدة مصابيح غطاها الضباب،
وهمسات الباحثين بها عن أبوابه،
في الصمت آذان، وفي الظلام عيون، في المعبد المشئوم

سعداء لو قضينا
تعبث الرياح بأجسادنا في غديرٍ راكد
مختنقين بأنفاسنا في ساعة حب.
لكنها لم تزل تتردد في المعَبد المشئوم

جفوننا ثقلت. همساتنا خفتت

والريح أطفأت الشموع
ظلام المذبح المهجور سجين صدرينا
والريح تذور الشموع، بمعبدِمشئوم

الكل يمضي ويُنسى
الحلم يمضي والليل يُنسَى
لكنها تمضي ولاتنسى
صرخات الحب بمعبد مشئوم

(٣) أقاصيص الموتى

الكل يُنسى ويمضي
الحلم يمضي والليلِ يُنسى
لكنها تمضي ولا تنسَى
أحلام الموتى في ليلِ أحيائهم

نجومٌ، بل دموعٌ من عيون الموتَى تنزعها الرياح
شموسٍ بل ضياءٌ من عظام الموتِى تحرقها الليالي
وحياة، بل ضبابٌ من أنفاس الموتَى تنسجه المنون
نجوم وشموس وحياة.

أنغام أمّهاتنا مزقها الزمن
مزقها الزمن
وما زلنا نرقص على أشلائها

أقدامنا تدمي، والموت في رقصاتنا
يتنفسن ضباباً من أنفاس الموتَى ويلدن أمواتا
ثم يغنين لهم كل مساء أغنية الحياة.
إن الكلمات كلماتهم
لكن الأنغام أنغام موتَى

دفء أنفاسنا يرشفه الثَرى
وأجفاننا يثقلها التراب
ما أسعد الديدان بالآمال الغضة
التي اكتست بالضباب

خطَرْنا عاشقينْ تحت أشجار الخريف
راقصيْن على وقعِ أنغام جناز
على رؤوسنا رفَّ الشاحب من أوراقها
وتدلت باقات الزهور من أعناقنا

يامن تشيّعون موتاكم على ألحان موسيقى
وتنثرون على أجسادهم باقات الزهور
اعزفوا موسيقاكم للبائسين من أحيائكم
واتركوا الأزهار تذوي في سلام

أفواهنا الطافحة بالرماد
تتغنّى بجمال التراب المجسم
أنصتوا إلى أغاني الحب في أحلامنا

ففي اليقظة تخنقنا الظلال
أغانينا يسحقها الصمت
ومآقينا يأكلها الجفاف
أشباح تجوب الزمان سُكارَى
مستجدين السحاب في ليالي القيظ

ابحثوا عنا بين أطلال حلم طويل
وابتعدوا ما استطعتم عن الشواطئ الخربة
فأجسادنا تحترق في قلب الرمال
وأعيننا فوق الصخور يترعها الدخان

رهيبةٌ أغنيات الموتَى التي لن تندثر
صلوات الحب في معبد مشئوم ترددها،
خيوطٌ من برودة الأجيالَ تغلّ كلِ الأيادي
وقبلات من شفاه الثرى تغلّ كلّ الشفاه.

الكل يمضي ويُنسى
الحلم يمضي والليل ينسى
لكنها تمضي ولا تنسى
صرخات الموتَى في ليلِ أحيائهم

❖❖❖

بقايا شموع

علامات الطريق في تاريخٍ لحياتي

الميلاد : تنغيمات الرماد والفحم الذي لم يحترق تماما - وقود آليّةٍ شاذةٍ مريضة.

الحب : سبب الوجود لطفيليّ رجيم بلعنةِ وعيه بنفسه.

النساء : فخار الصيني، خشن وقذر، يصقّله ويعبده الشعراءُ والبلهاء.

الأزهار : أوانٍ ملوّنة تعبق في عروات بِذَل الحيوانات الأنيقة. وتنمو كذلك على شواهد القبور.

الذكريات : نغمات الساعات المسترخية، بعد أن ماتت وشاهت، ساعات كانت عساها تكون.

الجمال : نغمة في الأشياء ليست هناك. انعكاسُ نفسٍ منغومة.

الدموع : التفافات نفس مسرفة الحساسية تُخليَ العالم العاري شيئاً ما أبلغ حقارته.. صدمة المشاعر وقد تحولت إلى تطهير.

الأفكار : تماثيل في أطُر من التخييل، مصنوعة من البلور الملوّن: يبهت اللون في شمس الخريف، أما البلّور فينشرخ عند هبّة نَفَسٍ قويّ.

الشعر : هذيان رأس متورم وقلبٍ متورم، يطهّر تورمَ رؤوسٍ وقلوبٍ أخرى.

الحياة : الموت مطولاً ومحولاً. دورة الرماد القانط.

الفلسفة : تفسيرٌ عساه لن يكون لعالمٍ غير جديرٍ بلَم وكيف. «لعبة القوة» لأذهانٍ متسامية.

الجنون : حركة غير مدْرَكة نحو عالم تكون فيه للأفكار والكائنات والأشياء دلالات أوثق وأكثر قربى.

قبر : ظلام مسوَّر تحت الأرضِ، حيث تهدهد الديدان البقايا، أغانٍ كئيبة تتوق لإغفاء، قلبُ امرأة.

الله : أكثر الأمور احتياجاً للمعنى لأنه أكثر ما نحتاجه من الأمور.

الديانة : عرض يوهم بأنه حقيقي، عن الأرواح التي هي أضعف من أن تحتمل كابوساً بألوان قوية.

السماء : أغنية نوم أعذب من أن تكون شيئاً ما، في حديقةٍ من زهور «تعالي – عيشي – معي» و«لا– تنسيني».

الانتحار : أنْ تقلب آخر ملعقة تقيس بها الليالي المنكوبة بعد أن تتخم نفسك بحبٍ يائس، في حلم لا إله فيه.
إسكات آخر نبرةٍ من صوت مكسور: «لقد عرفتها جميعا. عرفتها جميعا»».

بالانجليزية في الأصل

ترجمة: ادوار الخراط

(١٩٤٦)

قصائد بالأنجليزية

I

THE CROWDS

I slipped into the crowds looking for new things. All were hurrying on, none going back. I knew that they were all going there. I could see nothing but skulls, dead skulls. I knew there were faces with eyes that cried and lips that smiled. I knew they were there, but I could see nothing but skulls, and could hear nothing but the faint sound of their slim white bones beating the stone. I stepped aside in horror at the cold touch of a bone, and a man asked me for the time.

-Don't bother, brother, there is nothing called time, no Time, you fool!..., and I went on, this time far fram the crowds, for I knew them all. They were babies sucking their mothers' breasts for blood, men with black coats and rosy ties running after things they didn't know, and women, with skulls more delicate than Quasimodo's, looking behind them for the strange look of a man.

I wanted to laugh at them all, but I didn't, for I, too, was going there. They were talking, all of them, and none listening. I couldn't hear what they said, but I knew they were talking. They stepped into the mist, and they grew older, and their skulls never changed. Yet, in some of them, there were frozen tears that were their eyes...

It rained.. And I heard the rain beating their skulls in sad tones. I stood listening to them, and they reminded me of things I couldn't remember. And amid these sad notes I heard cheerful voices asking for the time They try to forget they are going there...

❖ ❖ ❖

II

SEAFARERS

Seafarers we were, fed up with lost horizons, sipping death in a dreadful boat that counted the evenings and every wave that passed. In wind and rain, through mud and lies we crossed the endless nights. You could see them all, the wind, the rain, the mud, and the lies, for they all ramained in our eyes.

Seafarers we were, forgotten by Gods, but our hearts were never broken, our eyes never wet, and we suffered. Prophets we never made friends with for they were in passionate love with their Gods, and their love smelt of something we didn't like.

Fierce stars sucked our blood in the chilly nights but they never grew into crescents, and they remained there, faint tapers hanging down from the clouds, drunk on our red wine.

Seafarers we were, grains, of sand we are. Grains of sand in unattained bottoms. There we lie, fr far from the dashing feet of the waves and the thirsty lips of the stars, moved neither by the songs of dear lovers, nor by the lullabies of dear mothers long forgotten. There we lie, with no tongues to ask for pity, with no ears to lend to foolish prophets. There we lie and round our tiny bodies a hundred lakes pour their waters. No roses will blow about us, but no poetry will be made of our bodies.

the wretched ghosts wrapped in fog. holds us till the song is gone. It holds us, folds us in itself, moulds us up. then leaves us in an awful nothingness. waiting for something, waiting for anything that would crush the silence, the void, the "us" - the wearied things long- held by a haunting song, long and merciless

The poor Gods! They are lonely, and wearied, too... They have been loved and adored, and temples have been built every-where. It is sympathy that they want, the poor Gods. They are fed up with incense, ever burnt in their temples, arising from every corner of the stupid thing they begot an hour of boredom. They are lonely. They suffer. They are choked of burnt incense. But never sympathize with them, NEVER, for it is there, leanig In the void, the ugly child of weariness.

III

THE WEARIED

They are moving just moving, these ghosts wrapped in weariness, and the fog is always there, in their mouths, freezing on their lips at the touch of a whisper. They move in a pageant, the wearied pageant that never stopped, just moving on, held and rejected by the hypnotizing symphony of the never - shattered destinies.

Red patches of broken feet stain the feet of the mountains, never moved by the wind, never changed by the fog. But they bolster up the clouds, the mountains with foggy features, and still they are lonely, and the clouds still lean the nights on bored peaks, as lonely as ever.

And there beneath the drooping mountains they smile in viciousness, the ghosts have been distilled by the dreadful song and they shake their heads in weariness, answering pessimistic sage.

They shake their heads in weariness, but they smile in viciousness, pulling out their tongues at his funny knocks, till they die in the slumberous tumult that storms the feet of the mountains with the same dreadful song they know.

It is still raining and the red patches are still there. Big drops slip from the hanging clouds, escapig the thirsty peaks. They fall on the feet of the mountains, covering the red mark swith kisses, old kisses, worn out and wearied. They can escape the thirsty peaks but they cannot break the silence. The hideous silence! It holds us,

Life: Death prolonged and transfigured. The cycle of desponded ashes.

Philosophy: The Would- not- be explanation of a universe not worth how and why. The "Tour de force" of elevated minds.

Madness: The unawared - of movement to a world in which ideas, beings and things have more intimate significance.

A Tomb: A fenced subterranean darkness where worms lull the remnants, dejecting songs that yearn to drowse; a woman's heart.

Heaven: A lullaby too sweet to be anything in a garden of "Come-Live -With-me" and "Forget -me -nots".

Suicide: Upsetting the last spoon measuring the afflicted nights after overfeeding one's self with a desperate love in a godless dream. Silencing the last refrain of a broken voice: "I have known them all, known them all."

IV

CANDLE-ENDS

"Landmarks in an autobiography"

Birth: The modulation of ashes and coals not wholly burnt fuel for a morbid mechanism.

Love: The "raison d'être" of a parasite damned with selfconsciousness.

Women: China clay - rough and dirty - smoothed and adored by poets and idiots.

Flowers: Coloured vases that blow through holes in neat animals' coats. They also grow on tombstones.

Memories: Relaxed puffs of hours dead and deformed and hours that would have been.

Beauty: A tone in things which is not there. The reflection of a toneful self.

Tears: Recoils of a soul over- sensitive that leave a naked world most despicable. Impact feelings transmuted in a catharsis.

Ideas: Fancy- framed statues of coloured crystal: colour pales under the autumn- sun and crystal fractures at a solid breath.

Poetry: The delirium of a swollen head and a swollen heart that purges the swell of other heads and hearts.

God: The thing the most insignificant, being the thing we need most.

Religion: A make -believe show for souls too weak to stand a nightmare in strong colours.

المحتويات

منير رمزى شاعراً .... بقلم أ. د. محمد مصطفى بدوى ٧
تقديم .... بقلم إدوار الخرّاط ١٧
- شهادة في يوميات .... بقلم إدوار الخرّاط ٣٠

بريق الرماد

❖ تشاؤم ٥٧
❖ آلام وأحلام ٥٨
❖ خلود ٦٠
❖ وداعا ٦٢
❖ جريمة الإنسان ٦٤
❖ دموع ٦٦
❖ في السماء ٦٩
❖ في الليل الأبدي ٧١
❖ حطام ٧٣
❖ صلوات قلب ٧٥
❖ هناك حيث الفراغ الممتد بلا نهاية ٨٠
❖ أسداء ٨٤
❖ نحو الغروب ٨٨

❖ الأوراق الذابلة ٩١
❖ قابر الأحلام ٩٥
❖ أنا الغريب ٩٧
❖ البقايا ١٠٠
❖ أحلام العودة ١٠٢
❖ أنفاس محترقة ١٠٥
❖ أنغام اندثرت ١٠٧
❖ المَلْهاة ١٠٨
❖ الدموع الأخرى ١١٠
❖ الجفاف ١١٢
❖ ليالي الشتاء ١١٥
❖ الحب في معبدي ١١٩
❖ القافلة ١٢٢
❖ الحنين ١٢٥
❖ الشاعر ١٢٨
❖ بريق الرماد ١٣١
❖ بعد الفجر ١٣٤
❖ التماثيل ١٣٦
❖ أغنية ليالي الأسى ١٣٩
❖ لحن أسطورة ١٤١
❖ بعد انقضاء النهار ١٤٣
❖ الرباعيات ١٤٥
❖ بقايا شموع ١٥٣
❖ The Crowds ١٥٧
❖ Seafarers ١٥٨
❖ The wearied ١٦٠
❖ Candle - ends ١٦٢

صدر في هذه السلسلة:

«١» أيام من حياتي ❖ هرمان هسه
«٢» قصص التحول ❖ جوجول، كافكا، روث
«٣» أثر العابر ❖ أمجد ناصر
«٤» من مجمرة البدايات ❖ محمد عفيفي مطر
«٥» حمار السحر ❖ خالد عبد المنعم
«٦» خطوط الضعف ❖ علاء خالد
«٧» ممر معتم يصلح لتعلم الرقص ❖ إيمان مرسال
«٨» ثمة موسيقى تنزل السلالم ❖ علي منصور
«٩» صمت قطنة مبتلة ❖ فاطمة قنديل
«١٠» شهرزاد في الفكر العربي الحديث ❖ د. مصطفى عبد الغني
«١١» إغواء الغرب ❖ اندريه مالرو
«١٢» لا أحد يأتي هذا المساء ❖ محمد موسى
«١٣» حوريات البحر ❖ إدوار الخراط
«١٤» حواس خاسرة ❖ منعم الفقير
«١٥» طيور جديدة... لم يفسدها الهواء ❖ طارق إمام
«١٦» سراب التريكو ❖ حلمي سالم
«١٧» صورة شخصية في السبعين ❖ جان بول سارتر
«١٨» ٠٠٠ وليلة ❖ صفاء فتحي
«١٩» أيورق الندم ❖ سعد الحميدين
«٢٠» في البحث عن لؤلؤة المستحيل ❖ د. سيد البحراوي
«٢١» الدليل اللغوي العام ❖ سليمان فياض
«٢٢» الأفعال العربية الشاذة ❖ سليمان فياض
«٢٣» قصة الأدب الفرنسي ❖ د. أمينة رشيد
«٢٤» معجم تفسير الأحلام في ضوء علم النفس الحديث ❖ توم شيتوايند
«٢٥» لماذا؟ ❖ إدوار الخراط
«٢٦» الكتابة ❖ مرجريت دوراس
«٢٧» معجم الجحيم ❖ سيف الرحبي
«٢٨» في مستوطنة العقاب ❖ فرانز كافكا
«٢٩» غواية موتي ❖ سلوى نعيمي
«٣٠» أصوات مراكش ❖ إلياس كانيتي
«٣١» إن تغنت القصائد أو انطفأت فهي بي ❖ فوزية شويش السالم
«٣٢» أبعد من زنجبار ❖ محمد الحارثي
«٣٣» أناشيد ❖ محمد يوسف
«٣٤» فضاء المراثي ❖ عبد الله السمطي
«٣٥» المشي أطول وقت ممكن ❖ إيمان مرسال
«٣٦» فحم التماثيل ❖ محمد عيد إبراهيم
«٣٧» فوضى لا أتقنها ❖ محمد عباس
«٣٨» تشكيل الأذى ❖ ميسون صقر

مطابع انترناشيونال برس ت : ٢٤٧٤٢٥٩

هذا الكتاب
ملك الأستاذ الدكتور
رمزي زكي بطرس

بعد انقضاء النهار الجميل

حين يمسي الفجر حدثاً في طوايا الماضي

ويركد الطير إلى أجنحته ليل دافئ

ابحثي في صمت إلى نافذتك

والصق الهمس الرياح في آذانه زهر نائم..

ستعرفين لوحدك

وتحتفين مدى وحشتي

منير

Bibliotheca Alexandrina
04039901